رواية

ميسلون هادي

فكشنري

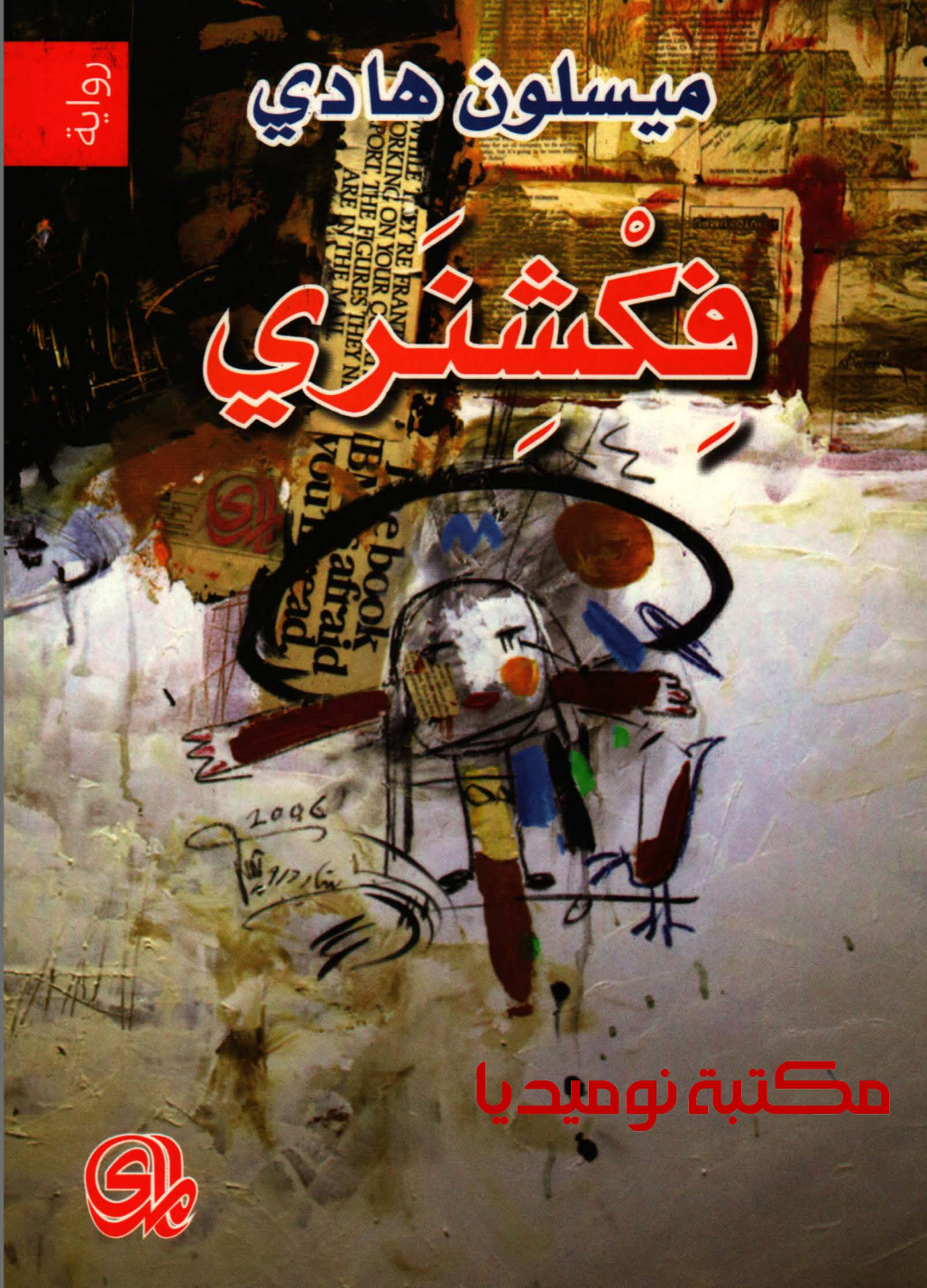

مكتبة نوميديا

فِكْشِنَري

رواية

اسم المؤلف: ميسلون هادي
Author: **mayslun hadi**

عنوان الكتاب: فِكْشِنَري
Title: **fekshenari**

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

الناشر: دار المدى
P.C.: **Al-Mada**

الطبعة الأولى: **2019**
First Edition: **2019**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Al-Mada

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.
هذا الكتاب مسؤولية الكاتب، والآراء الواردة فيه لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.
This book is the writer's responsibility, and the opinions contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

ميسلون هادي

فِكْشِنَري

«فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ»

• سورة الشعراء

«لبِستُ ثوبَ العيش لم أُستشــرْ»

• عمر الخيام

من لم يمتلك قلباً كيف يتمنى
من لم يملك قلباً كيف يحزن
• فروغ فرخزاد

-1-

ولد الأحمداني ميتاً... فاستقبلته الجدة(*) زيتونة بالضربات على صدره وبطنه.. وراحت الصغيرة آسيا تؤدي الحركات نفسها، وتصرخ مثل صراخ الجميع، بحيث توقفت الدجاجة السوداء عن التقاط الحبوب، واحتارت المسكينة هل تواصل بحثها عن الطعام، أم تستدير إلى القن هرباً من عاصفة الصراخ والعويل.

أمه ريحانة تكفخ على رأسها وتبكي بكاء مريراً، و القابلة زيتونة تكفخ الولد على ظهره ومؤخرته وتقرص بطنه وأصابعه وحتى غرلة عضوه الصغير.. أخيراً غرزت إبرة الخياطة في شحمة أذنه فانتفض الطفل الوليد، وعبّر عن أولى لحظات حياته بصيحة مدوية زغردت لها خالته نومية بهلهولة مضطربة الصوت سمعتْها الكلبة براقش، فتشّعب انفعالها بين النباح العالي، وهز ذيلها بعنف أثناء الدوران حول سيدها شرار النار. أمطرت السماء ثم أشرقت الشمس وهو يركض، ولم يوقفه عن الركض شيء سوى مروره من باب بيت ريحانة، إذ تثاقلت أقدامه، أو توقفت تقريباً، بحثاً عن أثرٍ أو عطرٍ أو لمحة صغيرة يتكرم بها شباك بيتها الصغير، وكان يكفيه من الدنيا كلها في تلك اللحظة، التي زغردت فيها نومية، أن يسمع ريحانة، وقد كفت عن بكائها المتواصل، وضحكت لعودة الحياة لمولودها الجديد.

***

-2-

لا يجوز لبنت شابة مثل نومية أن تقطع منطقة متروكة وغير مسكونة وقت الغروب، ولا يصح أن تطرق الباب من مطرقة الرجال الكبيرة، ولهذا عندما سمعت الجدة زيتونة ضربات متلاحقة وقوية على قارعة بابها، وضعت العباءة فوق رأسها، وعرفت بأن ريحانة أخت نومية قد أوشكت أخيراً على الوضع الذي تأخّر كثيراً، فدخلت شهرها العاشر بدون أن يأتيها المخاض:

- كيف جئت في مثل هذا المغرب يا نومية؟. ألا تعلمين بأن الجن يخرج في الظلام؟.

- لن يحدث شيء.. الجن هو الذي يخاف مني.

- أنا كنت سآتي من تلقاء نفسي، فكيف خرجت من البيت، والشمس قد اصفرّت وجنحت نحو الغروب؟

- لا تهتم واحدة مثل نومية لاصفرار الشمس أو غروبها، فهيا بنا يا زيتونة يا شمس الشموس.. السعلاة لو رأتني ستخاف مني، والجني إذا حاصرني سيطلع من رأسي ألف جني.

ذهبت معها الجدة زيتونة ماشية على مهل، لأن ثمة وقت طويل آخر أمام ريحانة لكي تضع حملها المتأخر، فالولادة خبرها عظيم، وأمرها أعظم.. يشق فيها الطفل طريقه من فتحة صغيرة بحجم العين.. ويُلزم أمه مجهوداً جباراً لكي تحض رأسه على الخروج من ظلمات رحمها

إلى النور.. سيتقطع اللحم من اللحم، ويتشقق الجلد من الجلد، فتنزف الحامل من جسمها دم النفاس، ومهما صرخت وتألمت من انقباضات بطنها، فلن ينتهي مخاضها إلا بعد لحظات عصيبة وعذاب شديد. تكون فيها ميتة من اللهفة على رؤية طفلها الجديد، وهو لا يريد الخروج إلى الدنيا إلا بطلوع الروح من الروح.

ريحانة بالتحديد زبونة دائمية للجدة زيتونة، ما أن يخرج طفل من رحمها حتى يتكون طفل آخر يصل مختنقاً، أو عليلاً يجعلها تتقلب بين أيام تعيسة من الانتظار و الجزع والعذاب، فتتحرى الجدة زيتونة أسباب علته، وتسقيه كل ما في جونة عطرياتها من اليانسون والسعدة والحبة السوداء.. ولا تقبل أن تحصل مقابل ذلك إلا على غداء بسيط مكون من الخبز وحساء العدس، أو على عدة بيضات ساخنة تكون قد باضتها الدجاجة للتو، وإذا طابت نفسها بعد الغداء غاصت أصابعها بطبق من حلاوة التمر تأكلها بنهم تحت شجرة في باحة البيت اسمها القلم طوز.

ضحكة ريحانة، التي سمعها شرار النار، لم تكتمل، فهي لا زالت خائفة وجامدة في مكانها على الفراش. وهذا الخوف هو كل ما يمكن أن تشعر به، أو تدفع به طيش مشاعرها خشية أن لا تكتمل فرحتها بوليدها الجديد، فلا تراه جائعاً يفتح فمه، أو تسمع له اسماً يُنادى به كباقي الأطفال، غير أنه راح يتحرك، ويتلفت بفمه طلباً لثدي أمه، فلم تصدق ريحانة عينيها، وراحت تفتح أصابعها ثم تقبضها على ثديها أملاً بأن يُدر له صدرها صمغ اللبأ، فيُصلح، على قلته، مناعة الطفل الرضيع، ويساعد على استقرار صحته..

ازدياد خوفها لا يمكنها نكرانه، حتى وإن شرب وليدها حليب صدرها كله، أو تنفس هواء الدنيا كلها، فريحانة تخشى عليه مصيراً مشابهاً لأطفال خمسة ذهبوا تحت التراب. وقد ترى في منامها شمعة أخرى تنطفئ، ويذهب نورها، مما يعني رحيل فرد آخر من أفراد الأسرة، ولهذا فرحت وفاضت الدموع في عينيها، ما أن رأت وليدها المزرق

وقد تورد لونه، والتمس له طريقاً للحياة، فأطبق بفمه على حلمة ثديها، وراحت هي تفسح بسبابتها مجالاً لأنفه كي يتنفس أثناء الرضاعة... زال عنها الوجوم والحزن، وأغمضت عينيها على حلم جميل رأت فيه شمعتين موقدتين في فناء الدار، فنزلت دموعها بغزارة على وجهها وفوطتها، ثم تعالقت مع سالفيها حتى دخلت أذنيها وأغرقتهما بالدموع. بلغ بها الابتهاج والامتنان حداً أن قبّلت يدّيّ الجدة زيتونة وبلّلتها بماء العيون ولعاب القبلات. وفوق ذلك كله نفحتها ما وضعه البگال على القاغد من الدهن الحر، مع بارة إضافية بجانب أجرتها من التمر والعدس واللبن الخاثر.

لا ينفتح بالعادة شباك بيتها، ولا يجد شرار النار خبراً أو أثراً لأصبع واحد يظهر منه، غير أن هذا الشح لم يدفعه أبداً إلى الشكوى من سوء حظه، أو الانقطاع عن مروره اليومي من هناك، فهو لا يملك إلا أن يتداعى عندما يصل بابها، ويقف ساكناً كالتمثال ليرهف السمع لصوتها العذب البعيد، أو يشم بنهم رائحة الهواء الذي تنفسته قبل قليل.. وما هي إلا لحظات حتى تدب الروح في التمثال، ويغدو أسداً حقيقياً يهجم على الأرض، فيفترسها في الحال، ويترك باب البيت، وقد آمن بالقدر، وأدرك أن المكتوب على جبينه هو أن يكتفي من ريحانة بهذه المسافة من القرب. فهو لا يعرف حتى لون عينيها.. ولم يصادف منها سوى صفحة وجهها الذي يتلألأ تحت شيلة سوداء، وقد حالفه الحظ لكي يراه، عندما أطلت من باب البيت لمناداة طفلتها آسيا، الوحيدة التي تبقت من صغارها على قيد الحياة.

دموعها لا زالت تسقط من عينيها بغزارة حفنة خرز انقطعت من سلسالها النحيل. تارة من شدة الفرح والإمتنان، وتارة أخرى من الإشفاق على نفسها، وعلى وليدها، وعلى زوجها شمس الدين الذي مات بحمى الهيضة أثناء حملها، فلم تُكتب له رؤية ابنه الجديد، ولا انكتب عليها غير امتلاء فمها بالدمع الغزير الذي كان ينز حتى من أنفها ولثتها حزناً

على تسعة أعوام عجيبة عاشتها هباءً مع شمس الدين، ابن عمها وضامن بساتين النخيل في السماوة.

حين يطلق الديك صيحاته بين باحات الأكواخ ذات الرائحة النتنة، يكون شمس الدين أول المتوضئين بماء الحنفية البارد، وإن لم يجد الماء فيتيمم بالزلط أو الصعيد الطيب النائي عن براز الطيور وزبالة الدجاج... كان يحرص على أن يستيقظ، ويصل الجامع قبل الجميع، وأن لا يغفل أبداً، بعد الانتهاء من كل صلاة، عن الانحناء ورفع اليدين للدعاء من أجل حفظ أولاده وسلامتهم من الأذى... غير أن للأقدار كلمة أخرى لا يعنيها تعظيم الدعاء، وهي الكلمة التي استسلم لها شمس الدين، ولجمت أفواه المعترضين، حتى وإن قالت بوفاة (عجاج) بالحمى، ونزول (عذاب) مختنقاً بحبل المسر، وسقوط (تراب) من شجرة القلم طوز إلى التنور، وضياع (هارون) في العيد الكبير.

بعد ذلك ظنت ريحانة أن توأمها غراب ومطرود سيندفعان إلى الحياة مثل اندفاع الطيور من شجرة لأخرى، فتنسى كل آلامها أو تدعها في عهدة رب السماء.. ألا أن الأقدار قالت كلمتها مرة أخرى، فلم تتحقق غايتها تلك، ولا أسعفها الوقت بأن تلاعبهما قرب حوض الحنفية في باحة البيت.... إذ وقفت لهما حياض الموت بالمرصاد، وأردى بهما مرض الحصبة في العام السابع على زواجها من شمس الدين.

كان ذلك بعد عام من ولادتها ابنتها آسيا، وهي الوحيدة التي ظلت على قيد الحياة، وكانت تراقب، بتعطش، الجدة زيتونة وهي تضع الوليد الجديد في حضنها، وتلبسه الملابس، وتقرأ الأذان في أذنه اليمنى، ثم راحت تمضغ تمرة بفمها، وظلت تلوكها لكي تصبح لينة القوام.

كانت الأخت(*) على خدها تتحرك أثناء ذلك.

-3-

الجدة زيتونة لا زالت تلوك التمر في فمها، وتنظر من كوة صغيرة في البيت إلى رجل طويل القامة جاز البيت بسرعة، فركضت معه الكلبة براقش، وهبّت الحمامات هبة واحدة بحيث خفقت شمعة الرازونة، وكادت أن تنطفيء.. هذا هو ما يحدث دائماً كلما اخترقت أقدامه الدربونة مثيرة الكثير من عواصف الهواء التي تغشي الفوانيس المشتعلة بغلالة من الغبار.. والآن تسقط أيضاً بضعة ريشات رمادية من السماء إلى درج السطح المكشوف، فتتيقن الجدة زيتونة بأن هذا الرجل هو نفسه شرار النار الذي مر بها عندما انعطفت إلى بيت ريحانة فوق طريق يعفر أذيال عباءتها بالتراب.

كانت نومية تسير معها وتتحدث معها بصوت عال عن عدم اكتراثها بخروج الجن وقت الغروب، وبأنها من أولئك اللائي يخاف منهن الجن ويحسب لهن ألف حساب. صوتها العالي تردد في الأرجاء، فمدت بعض النسوة رؤوسهن من خلف الأبواب، ثم أُغلقت تلك الأبواب على شمس تغرق في الظلام، ومع كل باب يُقفل ينغلق فم آخر من أفواه المنازل المفتوحة بالسؤال، ذلك أن وجود القابلة زيتونة مع نومية في هذا الوقت المتأخر من الغسق يعني أن أختها ريحانة قد شارفت أخيراً على الولادة، وأن جيرانها سيتأسوْن على زوجها شمس الدين الذي مات قبل أن تبلغ ريحانة شهرها التاسع.

لا يعرف شرار النار سوى الركض بين الجرود والدروب، ولا يجد متعته إلا بالتنقل بين جادة وأخرى، وبالرغم من تعب الولادة، فقد أحست ريحانة بمروره، وسمعت خفق أجنحة الحمامات ونباح كلبته براقش.. رفعت رأسها عن طفلها الرضيع، وسألت الجدة زيتونة، وقالت: من هذا؟ هل هو أنسي أم جني هذا الرجل؟ فأجابتها:

- إنه شاب نحيف وسيم أشهب اللون ماتت أمه أثناء ولادته، وفُقد أبوه في حرب القفقاس، فلم يعد له رفيق أو أنيس سوى كلبته براقش.

قالت نومية أخت ريحانة:

- أمه لم تمت أثناء ولادته يا زيتونة، وإنما ذهبت إلى المغارة وماتت هناك.

- أية مغارة؟

سألت ريحانة، فقالت أختها نومية:

- هذه قصة طويلة سأرويها لك عندما تتعافين.

اختفى شرار النار، ولم يبق أحد من المارة في الجادة، وتخيلتْهم الجدة زيتونة يصطفون لصلاة الفجر بعد قليل على تراب الجامع المفروش بالحصران والسجاد اليدوي المشغول على شكل مدّات صوفية ملونة بخطوط حمراء وخضراء تحوكها ريحانة عادة فوق منوال خشبي تظلله شجرة قلم طوز ضخمة.. آه يا الهي، قالت لنفسها، ساعدْ ريحانة والدة الأطفال الموتى، وحائكة البسط الجميلة وصانعة القشوة اللذيذة، آه يا خالقي وخالق البشر والطير والشجر، ساعدها لكي تكون سعيدة بمولودها الجديد، وساعدني لكي آخذ بيده نحو السلامة والذكر الطيب، آه يا إلهي، إنه طفل جميل، فاكتب له العمر المديد وهب له الحياة القريبة والبعيدة، ولا تفجع قلب أمه، وارحمها وارحمنا يا أرحم الراحمين.

- ماذا نسميه؟

سألت القابلة زيتونة، فأجابتها ريحانة:

- أحمراني؟ ألا ترين لونه أحمر كالشوندر.

- ألن تخافي عليه من الحسد يا ريحانة؟ إنه طفل جميل كالبدر عند اكتماله. فاطردي عنه أذى العيون باسم آخر.

- يا ما سميت عذاب وعجاج وتراب ومطرود وغراب خشية عليهم من العين والحسد، غير أنهم ماتوا جميعاً. وبكيت طيناً عليهم.

- أولادك منفوسين بسبب جمالهم.. فلا تزيدين الطين بلّة باسم جميل.

- وهل طردنا العيون أم منعنا عنهم الموت بالأسماء القبيحة التي كانوا يحملونها؟ أبوه شمس الدين أصلاً كان يعارضها.. وكان يريد اسماً من أسماء المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام.

- لماذا تبكين؟..

- .....

- لا تبكي يا بعد روحي.. ترحّمي عليه فقط. خبزته خلصت قبل أن يخلص حملك.. وقضاء الله قد نفد فلا يرى ابنه.

- انعصر قلبي وبكيت لأنّ لمّتنا قد انتهت وانفرطت قبل أن تنعقد، وأول أن يشتد عود الأحمراني سآخذه ونذهب لزيارته في قبره.

- أحمراني؟ هل ستسميه الأحمراني. ألم تقولي بأن أباه كان يريد أن يسميه بأحمد أو محمد؟

هنا نبّتْ الصغيرة آسيا من مكانها على الحصير، حيث كانت تجر منها بعض العيدان الناتئة، وقالت:

- أحمتاني أحمتاني. لونه مثل الدم أحمتاني.

- ها ها ها.. كفي عن نتف الحصير يا قجمة.

- انت قجمة.. وما عندك ظهر.

- شلون ما عندي ظهر يا أم بولة؟

- ظهرك ماكو.. وشعرك ماكو يا أم الدخان.

- تعاي أشو تعاي هنانه. ماخذتني حاصل فاصل(*)، وأنت قرعة وحتى ظفاير ما عندك.

- أنت قرعة وقجمة وأم الدخان.

- تذكري يا آسيا بأني قد طلبت منك أن تحفظي سورة الحمدُ(*).. وليس أن تحفظي جزو عم بأكمله، فتعالي وسمّعي لي ما قد حفظتيه.

- أنا أخاف منك... أنت تطلعين الدخان من خشمك.

الجدة زيتونة فعلاً هي أول من أخرجت دخان السكائر من أنفها، وكان يزعج آسيا بانتشاره مع حشرجات تنفس حار لن تنسى مطلقاً أنها سمعتها في اللحظة الحاسمة التي دخلت الأبرة الساخنة في اللحم. آآآآآآآآآآآآخ.. غطت الدموع وجه آسيا كله، فلم تر من خلالها سوى سيكارة مستقرة في فراغ سنين مقلوعين داخل فم الجدة زيتونة، وخيط غليظ أسود اللون يتدلى من الأبرة السميكة..... الكراهية بدأت منذ تلك اللحظة، فظلت آسيا تبصق على الجدة زيتونة وتحك شحمة اذنها كلما رأتها. أو تهرب منها إذا ما طالبتها بتسميع سورة الفاتحة، فيتطاير شعرها الخفيف في الهواء، ويظهر خيطان أسودان على أذنيها يمران من ثقبين، ثم ينعقدان مع قليل من الدم المتيبس..

آسيا ابتعدت بعد هروبها من الجدة زيتونة إلى حوض الحنفية قرب غرفة المخزن التي تسميها نومية بالكبشكان، كانت غرفة الكبشكان باردة في الصيف لأنها تبنى بسقف واطيء.. وفيها تنام آسيا مع خالتها نومية إذا ما جاءت لهم الجدة زيتونة بمولود جديد كما هي عادتها كل عام.. تفووووو عليها..

- تفووووو عليك يا أم الدخان.

أصبحت آسيا تكافح للسير بخطوات صغيرة بين ألواح الخضرة التي تزرع فيها خالتها نومية بذور الريحان والرشاد والكراث... وأمها ريحانة تشعر بأن الأمور مستقرة ومختلفة هذه المرة، لأنها ضحكت طويلاً وكفكفت دموعها طرباً على ما دار من نقار وشجار بين الجدة

زيتونة وابنتها آسيا..... مرتاحة كانت للغاية وهي تجد وليدها الجديد قد عثر على حلمة ثديها بعد أن أفلتها من فمه عدة مرات، وتشعر بصدرها الممتلئ يفرغ قليلاً مع كل رضعة تسمع خريرها وهي تجري في زردومه.

- لقد فقدتِ الكثير من الدماء يا بعد عمري، وعليك أكل التمر وشرب الكثير من الماء لكي لا تصابي بالإمساك. وكلي أيضاً قبضة من السمسم إذا لم يكن الراشي موجوداً لديك. ولا تنسي أن يكون عدد التمرات فردياً.

- نومية... نومية. وينه برداغ المي؟ كان محطوطاً هنا قرب فراشي.

- نومية ملتهية ببساتيك الطرشي.. أنا سآتي لك بالماء. ستحتاجين الكثير منه لدر الحليب في صدرك.

كرعت ريحانة الماء بنهم، ثم قالت:

- ما أطيب هذا الماء.

- لأنك عطشانة يا بعد روحي.

- وما أجمل ابني.. انظري يا جدة ما أجمله.

- هو مثل كل ولد خرج من بطنك. آية في الحسن والجمال.

- لا أريد أن أضعه في المهد نفسه الذي مات فيه أخوته فقد يكون هذا شؤماً عليه.

- الشؤم ليس في المهد ولكن في مكان آخر.

- أين؟

- هناك قرب البئر الذي جف وانتهى أمره.. أنا أعرف أين مكان الشؤم في بيتك، وسأخبرك به بعد أن أتاكد.

- أنا خائفة أن يموت مولودي الجديد؟

- بإذن الله سيعيش. قولي يا الله.

- .....

- لماذا تبكين؟

- أخاف أن لا يعيش؟

- ها هو في حضنك نائمٌ، فلماذا تبكين؟

- أخاف أن يموت كباقي أخوته.

- لن يحصل له هذا بإذن الله. انظري ما أجمل أصبعه الصغير.

أمسكت ريحانة بأصبع ابنها الصغير وقبلته عدة مرات... وبعد أن تأكدت من عد أصابعه العشرين، شمته من طيات رقبته قائلة بأنها تحب رائحة الطفل الوليد.. لم تكن تتوقع أن تحمل لها الجدة زيتونة وليداً جديداً برائحة طيبة تضعه في حضنها.. ولا أن تشعر بكل هذه السعادة بعد أن خرج طفلها من أحشائها للدنيا، فأزال عنها كل تعب الولادة، بل وجعلها تبكي من فرحتها ولا تتوقف عن البكاء، لكن سعادتها ستختفي بعد قليل، وقلقها لن يزول إلا بعد أن تطمئن عليه تماماً، فتشعر حينذاك براحة عميقة لا تشبهها راحة أخرى على الإطلاق..

انتهى كل شيء، وغفت اغفاءة قصيرة من شدة التعب، وعندما استيقظت كانت الجدة زيتونة قد أخذت الطفل من حضنها، وأخرجت التمرة التي كانت تلوكها من فمها، ثم وضعتها في فم الطفل الوليد وأدارتها بسرعة في أطرافه. صرخت ريحانة:

- يبووووووو.. ماذا تفعلين يا جدة زيتونة؟

- .....

- ماذا تفعلين يا جدة زيتونة؟

- يجب أن يكون أول غذاء يدخل فمه بعد الحليب هو الرطب أو التمر، إنها سنة من سنن أهلنا. وإن اللعاب الذي اختلط به سوف يساعده على هضم التمر في معدته.

- لعاب؟ كيف تفعلين هذا؟ لم أرك تفعلين هذا من قبل.

- وها أنا أفعله الآن. ولا تتحدثي كثيراً أثناء الرضاعة، فهذا غير جيد للطفل.

وضعت الجدة زيتونة سكيناً تحت رأس الطفل، وعندما يبكي، قالت لريحانة، فاعملي له القنداغ(*). أما إذا لج في البكاء، فهاتي منقلة صغيرة وطقطقي بعض الحرمل فوق الجمرات لطرد الحسد وفقس العيون. و لا تنسي أن تصلي على النبي محمد.

-4-

حل الصباح، وأشرقت الشمس على وليد استغرق رأسه ثلاثة أيام ليخرج إلى الدنيا، فاحتاج كل أهل البيت إلى افتراس جدرية من الطعام الدسم يسدون به التعب والجوع، وريحانة تحديداً عضها الجوع، وهلكت من العذاب وشدة الألم، بحيث أنها غفت مرة أخرى وبقايا العصيدة في فمها، ثم استيقظت لتجد أختها نومية قد ذهبت للسوق وعادت منه أثناء اغفاءتها القصيرة تلك.. وجدت ريحانة أيضاً جاراتها حولها، فتعجبت مع نفسها، وقالت متى جاءت هؤلاء النسوة إلى البيت؟ وكيف تجمعن حولي بهذه الطريقة؟ تحرك رأسها إلى أعلى، وشعرت بالانتعاش لتلك النسمات الطيبة التي هبت من الباب المفتوحة على الهشتية(*) وقت الضحى..... وواحدة بعد أخرى تسربت النسوة إلى بيوتهن القريبة..... ولم تبقَ سوى الجدة زيتونة التي نامت على الأرض وغطت في الشخير.

بقي أيضاً قسم من حبل المسر معلقاً بالسُّرّة قدره نصف أصبع. لفته الجدة زيتونة بعد الولادة بقطعة قماش حتى يجف ويسقط تدريجياً بمرور الوقت. ومرت سبعة أيام والمسر معلق إلى صرة الرضيع، بحيث تخاف ريحانة أن تمسه أثناء تبديل ملابسه، وتخشى أنه سيؤلمه إذا ما تحلحل من مكانه، فظلت تتحاشى المساس به أو الاقتراب منه، إلى أن جاءت الجدة زيتونة تمشي على مهل وعباءتها السوداء تكنس التراب في

طريقها، وقبل أن تسأل ريحانة سؤالها المتكرر: كيف حالك، جرت آسيا العباءة من رأسها.. لأنها تريدها أن تجلس فتناقرها.

- كيف حالك؟.

وجمت ريحانة ولم ترد. كانت متعبة مقعرة العينين، فسألتها الجدة زيتونة مرة أخرى: كيف حالك يا ريحانة.. ما بك يا بعد روحي؟ لماذا أنت مهمومة؟، فبكت وقالت لها بأن حيلها قد انهدّ من هذه الولادة، وظهرها آلمها، ولازم الصداع رأسها بضعة أيام، وعندما كانت تعطس تشعر بكدمات جسمها تؤلمها، وتضرب قطباً أسفل بطنها ينغزها مع كل عطسة تعطسها. آسيا راحت تبكي معها.. ودارت كالذبابة حولها.. فلم تعرها أمها بالاً، واستمرت تشكو للجدة زيتونة حالها، وتقول إن عظامها قد تضعضعت خلافاً لكل ولاداتها السابقة، ولا تعرف سبباً لما تشعر به من تعب.. ردت الجدة وقالت بأن العين قد أصابتها حسداً على جمال مولودها الجديد.. وللسحر أيضاً فعل آخر يستدعي قراءة العزائم والرقى لإبطال عمله وطرد العيون الحاسدة عن البيت، ولو كان شمس الدين لا يزال على قيد الحياة، لحرقت له الأوراق والبخور ورشت عليه الماء المرقى الذي يجعل قلبه ممتلئاً بحب زوجته ريحانة، فلا يكون له في السماء مصعداً، ولا في الأرض مقعداً إلا بقربها. عندما وجدت آسيا بأنه لم يعد أحد ينتبه إليها، أو يغني لها، أدارت رأسها بين أمها والجدة زيتونة، وقالت للإثنتين:

- تفو عليك يا أم العظام.. تفو عليكِ يا أم الأحمتاني.

ولا تنتهي أعمال آسيا عند هذا الحد..... فريحانة أخذت تسمع صوتاً كطنين الحشرات في أذنيها، وعندما يتوقف الكلام من حولها، يزداد هذا الطنين المتواصل الذي سيصيبها بالجنون.. تفغر آسيا فمها أثناء التفرغ لسماع الجدة زيتونة وهي تقول لأمها بأن هذا الطنين إن لم يكن عملاً سفلياً من أعمال الجن، فهو من أعراض العياط العالي الذي عاطته بسبب ظنها أن الأحمراني سيموت.. فاجلسي يا ريحانة قرب

هيكل التنور، وضعي رأسك في مجرى الهواء الساخن لفتحته السفلية، لتطيب أذناك من هذا الطنين العالي. ولا تنسي أن تقرئي المعوذتين وسورة الإخلاص، فقد تكونين منفوسة أو مسحورة من أمهات السحر والأعمال... هنا تقول آسيا بأنها محصورة؟ ولا أحد يرد عليها، فأمها لا تسمعها، والجدة زيتونة مستغرقة في الكشف عن مصدر الفأل السيّئ في بيتها، بحيث أفتت بأن مصدر الشؤم ليس في المهد أو أي مكان آخر، إنما في الدجاجة السوداء الموجودة في الفناء... ماذا تقول آسيا لا تعرف.. فالكل منشغل عنها، وليس أمامها سوى أن تشق طريقها خلف أمها إلى الفتحة السفلية للتنور.. جاءتها من الخلف، وعضتها من كتفها، ففزت وصرخت وذهب عن أذنيها الطنين.

أول أن عادت نومية من الجامع، الذي رمت قرب سياجه حبل المسر، توجهت لقفص الدجاج، ومعطت منه الفروجة السوداء هدية للجدة زيتونة إكراماً لما قامت به من مجهود كبير، سواء في إتمام الولادة أو في تنظيف مكان السرة بعد سقطة حبل المسر. رفضت الجدة أن تأخذ الفروجة السوداء كالفحم، وقالت لا حاجة لأخذ الدجاجة كلها، سأقتطع منها الفخذ من مفصل العظم فقط. ولأن الفروجة كانت حية، فقد ظنت نومية أن الجدة زيتونة تمزح كعادتها، ولن تقدم على عمل شنيع من هذا النوع، غير أن الجدة زيتونة أصرت على اقتطاع الفخذ فقط، ولم تلقَ بالاً لتحذيرات نومية، ولا انتظرت موافقة أحد، وإنما أخرجت من جيبها سكينة قطع المسر لانجاز فعلتها، والتخلص من مصدر الشر الوحيد في البيت.

- ماذا تفعلين يا جدة زيتونة؟

- أفعل ما أفعل. لا أريد الفروجة كلها. أريد رجلها فقط.

استطاعت الفروجة التي فرفحت وقوقأت ورفرفت، أن تفلت من حضنها بجرح بسيط في قدمها. شهقت نومية ثم نظرت باستياء شديد إلى أختها ريحانة التي عجزت عن الكلام، ولم تكن تنتظر أكثر مما تفعله آسيا في كل مرة، أي أن تبصق عليها بصقتها الهوائية الجافة والخالية من

الرذاذ، وتأتي عادة بعد نظرة كره شديد لا يتبدد تجاه المرأة أُم الدخان التي ثقبت أذنيها. سوياً وقفت نومية مع أختها ريحانة تنظران بفزع شديد إلى الجدة زيتونة التي تحولت فجأة من فتاحة فال شريرة إلى عجوز طيبة نادمة على عملها، فأخرجت من جونة عطارياتها الكمون والورد واضافير الجن، لكي تشربه الفروجة العرجاء ويهدأ روعها.

- المجهود الذي بذلتِه يا ريحانة سيؤثر عليك، ستشعرين بإرهاق وألم في عظام الظهر والعصعوص، وستحتاجين إلى غذاء مفيد مثل العدس والماش، بإمكانك إضافتهما إلى البر الذي تتناولينه. لأن عظامك قد تضعضعت.

- أنتِ التي تضعضعتِ يا جدة زيتونة. كيف تريدين قطع رجل الدجاجة وهي حية؟.

- هذه الفروجة أنا لا أحبها، سوداء وتشبه الجنية، قد تكون هي مصدر الشؤم في بيتك.. شيء في بيتك يسبب النحس لأولادك، وجفاف الماء في بئر بيتك، بل حتى ترملك وأنت في عز شبابك، فأردت قطع دابر شؤم هذه الدجاجة إكراماً للطفل الجديد. ألم تعطني أياها نومية.

- شعرت بدوخة رهيبة عندما رأيت دمها. الحمد لله أن نومية لحقتك قبل أن تقطعي رجلها.

- وما الفرق عزيزتي؟.. لا يوجد أي فرق بين قطع الرأس وقطع الرجل. بل إنها في الحالة الأولى ستموت، وفي الحالة الثانية ستعيش.

- لا يجوز لك أن تفعلي ذلك، والقرآن سيُغمى عليّ من هذا الكلام.

- ونسيتُ أن أقول لك.. لا يجوز لك أن تصلي أو تصومي أو تلمسي القرآن حتى ينتهي طمث النفاس.

ومرت الأيام وأصابع الجدة زيتونة تجوس في فم الطفل الجديد، وباقي أجزاء جسمه، للتحري عن أسباب البكاء، والتأكد من استقرار صحته، أما بحلب ثدي ريحانة فوق عينيه لكي تشفى من الاحتقان،

أو بسقيه بالماء المالح لكي يقبض إسهاله، أو مسح جلده بالطين خاوة لكي يطيب من الحصف. لم يبق عشب في الأرض أو النهر لم يدخل إلى جوف الأحمراني، حتى جاء يوم طخّها فيه عظم صغير ناتئ في فكه السفلي، فزغردت الجدة زيتونة بفمها الخالي تقريباً من الأسنان، وأعدت له خالته نومية الششة والدندوجة احتفالاً بطلوع سنه الأول.. كما طبختْ العصيدة من بقايا عتيگة للخبز اليابس خلطتها مع الحليب والسكر وسخنتها على نار الچولة.

- آآآآآخ.. آآآآخ يابة.

آسيا الصغيرة تريد بعض الإهتمام أيضاً، وتتوجع هي الأخرى ببضع كلمات تعيدها على مسامع دمية محشوة بالقطن تنام في حضنها..... الدمية لم يستثنها الذباب ولا البعوض، وكانت تأكل أيضاً مع آسيا بعض الدبس بالإكراه، فيتلغمط وجهها بالدبق الذي يجتذب الحشرات. وترميها أمها إلى نار التنور عندما تصل إلى هذه الحالة المزرية. وبالتالي تتحمل الجدة زيتونة تبعات فعلٍ مثل هذا، أو أي فعل آخر لا ذنب لها فيه سوى حظها المصخم(*)، وعليهاً، كما تقول، أن تجعله يبتسم لآسيا عسى أن يبتسم لها بعد ذلك، فتتجنب بصقاتها الهوائية.

خرجت آسيا من الطشت ذات يوم لتجد مفاجأة بانتظارها، فضحكت، وفتحت فمها بخجل من هذا الاهتمام الذي جعلها تنام سعيدة مع قبقاب خشبي أحمر في حضنها اشترته لها الجدة زيتونة.. مشت الأمور لصالحها ليوم واحد فقط، أما سائر الأيام فالأحمراني يحوز على الاهتمام كله من أمها والجدة زيتونة.. فهو جاهل(*) ليس له لسان يتكلم به لكي نعرف ما هي إصابته حسبما تقولان. ولهذا علينا أن نتحرى اسباب التوجع بأنفسنا، فقد يكون مصاباً بالذابوح تحت الإبط أو في طيات الفخذ، أو قد تحكه أطرافه وفروة رأسه، أو قد يبوخ فمه ويلتهب ويصاب بالبطباطات و الفراكيس، ولا تنسى الجدة زيتونة، بعد أن تستكمل كل وصفات أعشابها، أن تقوم بتحصين كل طفل يولد على

يديها بالبسملة وقراءة المعوذتين والإخلاص وآية الكرسي وخواتيم البقرة. حتى إذا جاء أجله، على يديها أيضاً، فإنها تحوقل وتستغفر الله له، ثم تقرأ عليه سورة الفاتحة، وتقول:

- إن الأبرار لفي نعيم.

-5-

آسيا هي الوحيدة التي لم تحصنها الجدة زيتونة كما يجب، فعاندت الموت، وضحكت لها الأقدار التي لجمت أفواه جميع المعترضين فيما سبق، ثم عاشت بصحة وافرة وعيون قوية تتربص بالجدة زيتونة، وتجدّ في تقليدها بالنفخ والتعزيم، فرصة للتظاهر بأنها ترقي الأحمراني، في حين أنها تخنقه، وتضربه على رأسه وصدره، مرددة كلمات تحصين الجدة زيتونة نفسها، ولكن بطريقة غير مفهومة:

- رحمام.. رحيم.. مالي.. يوم.. الدين.

مهما تحايلت الجدة زيتونة لاسترضاءها لن ينفع، أو يغّزر معها، وكل أشكال التودد إليها لن تجعلها تتلقى منها سوى رد هوائي واحد لا يتغير. وحتى عندما جاءت لها بالقبقاب الأحمر، فقد زاد هذا القبقاب الطين بلّة عندما أدى بها إلى السقوط من الدرج..

آسيا لم تعتد المشي إلا حافية القدمين، وبالتأكيد فإن تعثرها على الدرج يستحق منها رد فعلها المعتاد على هذه العجوز التي لم تشفع لها هدية القبقاب الأحمر بأي شيء.. كان جميلاً إلى درجة أن قامت آسيا بتقبيله عدة قبلات، وشغلت وقت فراغها كله بتقليبه في حضنها دون أن تشبع من النظر إليه. غير أن الأمر تغير كثيراً عندما سقطت من الدرج مع دميتها المحشوة بالقطن، فعادت زيتونة لا قيمة لها بالنسبة بآسيا.. فهذه العجوز باقية لا تموت، والقبقاب أخذته أمها ريحانة منها، ووضعته في

مكان غير معروف. عند ذاك أطلقت آسيا ناعورة البكاء، وراحت تتف على الجدة زيتونة كلما رأتها، لكونها السبب في عدة مصائب حدثت لها، إذ لم لم تكتفِ بثقب أذنيها بالأبرة الساخنة، وإخراج الدخان من فمها وأنفها، وإنما جاءت بطفل جديد للبيت، وآسيا تغار من هذا الأحمراني الصغير وتخنقه أحياناً بحجة تقبيله، أو تحصينه كما تفعل الجدة زيتونة التي تغلط آسيا في اسمها وتناديها بالبزونة.

تفرّ ريحانة رأسها عجباً من الاسم الغريب للجدة زيتونة، فأختها نومية سميت بهذا الاسم لأنها ولدت شاحبة صفراء اللون، وهي سميت باسم ريحانة لأنها ولدت يانعة ريانة كأوراق الريحان، فلماذا سميت زيتونة بهذا الاسم وهي ليست سوداء؟، وما قصة اسمها الذي قالت زيتونة إنه نوع من الثمر المر المجلوب من بلاد الشام، غير أنها لم تتذوقه، أو يدخل بيت جدها مخللاً إلا عندما بدأ أحد الناجين من أهل الكويت حملته إلى مدينة البصرة يرافقه أربعة موسيقيين يعزفون على آلات غريبة تشبه البنادق.

الجدة زيتونة تقول بأنها ولدت بعد عام الطاعون عندما انتشر المرض في الكويت، وصادف ذلك مع موسم الغوص ووصول السفن التجارية الهندية إلى الشواطئ هناك. اضطر بعض سكان الكويت إلى البقاء في البحر هرباً من الوباء، وكما يقول أبوها فإنه لولا سفره مع بعض الرجال في السفن البخارية، وهرب القسم الآخر إلى الشويخ، لخلت الكويت من سكانها.. فقد انقطع نسل بعض العوائل الكويتية بسبب المرض، كما حُبس عدد من المواطنين الناجين من الوباء في إحدى القلاع، وأُغلق عليهم بعد تزويدهم بالطعام والشراب خوفاً من عودة المرض وإنتشاره. امتلأت الكويت بعد تلك الحقبة بالمقابر، وأصبح البعض يدفنون موتاهم في بيوتهم.

«وبعد صفاء جو الكويت وزوال المرض عاد أبي والمسافرون من مواسم الغوص والتجارة حيث وجدوا جميع أهالي الكويت قد قُضي

عليهم إلا القليل منهم، فاضطروا إلى الزواج من المدن المجاورة مثل نجد والزبير ليحافظوا على نسلهم من الفناء والإنقراض. تزوج أبي من بصراوية جميلة سمراء اللون، وأسماني زيتونة لأنه كان قد ذاق الزيتون لأول مرة في رحلة البحر التي وصل فيها إلى ميناء العقبة هرباً من الوباء».

بعد أن فرغت زيتونة من قصتها، قالت بيت شعر نبطي يعود إلى تلك الأيام الخوالي، وغنته قبل ثمانين عاماً، حسب تفاطينها، فرقة رافقت أباها إلى البصرة في عزف حزين:

عقب شفنا المنازل مثل دوي الفضا
عقب السكن صارت خلايا مخاريب
وا حسرتي ليمن طرا ما مضى
عصر يذكرني الأهل والأصاحيب.

تُفْ تُفْ تُفْ.. أشبع عازف البوق آلته نفخاً. بُمْ بُمْ بُمْ.. أجابه عازف الطبل قرعاً. طِقْ طِقْ طِقْ.. فرقعت أصابع أصدقاء العريس فرحاً. طمبح طمبح طمبح.. اندمجت زيتونة رقصاً، وراحت تطق باصبعيها وتتف في الهواء بمرح كعازف البوق الذي تستعيد حكايته مع باقي العازفين. هكذا تعلمت آسيا أن تتف على الجدة زيتونة:

- تف عليك.
- هاي على منو؟
- عليك؟
- أنا؟
- أي أنتِ. تف تف عليك أنتِ.
- ليش ولج؟
- مو عيب عليك تركصين مثل الشوادي.
- طم طم إشطح. طم طم إشطح. إشطح وانطح.

نومية تضحك، وتتلفت في اتجاهات مختلفة لتوزع ضحكها على كل

الفراغات. ريحانة يستغرقها الضحك أيضاً على العجوز التي تتمايل دون أن تجقجق الملاوي الذهبية الستة في معصمها السمين، فهي خرساء الأساور بسبب امتلاء جسمها باللحم.

- من أين لك بملاوي الذهب الجميلة هذه، ولماذا لا تخلعينها أبداً؟

- عندما لا تتزوج البنت فإنها تستعيض عن الزوج بالذهب.. فيلازم يديها كما يلازم الزوج زوجته. أنت عندك رجل واحد يا ريحانة، وأنا عندي ستة رجال. ثلاثة في كل يد.. ها ها ها.

- عجباً كيف ظلت أشهر قابلات السماوة بدون زواج؟.. وكيف اتقنت المهنة وهي لم تلد طفلاً في حياتها؟.

- سلامة نظرك يا ريحانة، أنا كنت أكثر جمالاً من هذه الأساور الستة، غير أن النصيب تعسر والحظ تعثر عندما أخذت الحرب رجلاً كان قد خطبني، فامتلأ جسمي وفمي بالدمامل، ولازمتني السخونة عدة أيام حتى استشرت تلك الدمامل المؤلمة في سقف فمي، وبطانات جفوني.. لا أدري إن كنت قد حدثتك بكل هذا، أو اخبرتك بأن أمي قد جُنت من الحزن، وصعدتْ إلى السطح، وصرختْ في فوهة التنور الحجري: «يا عالي بلا درج.. كل نفس بشدة من أمة محمد يّسر لها الشفاء والفرج». ثم نذرت من الله الواحد القهار إن هو خلّص ابنتها مما أبتليت به من بلاء عظيم، فإنها لن تُخطب لرجل آخر أو تتزوج أو تنجب، وسيكون بقاؤها بدون رجل قرباناً لشفائها من هذه الدمامل التي تكويها بالنار والألم.

- ما أغرب دعاء أمك هذا!

- وقد استجابت له السماء، فأوْفيتُ أنا نذر أمي، وأكتفيتُ بما كان يأتي إلى الدنيا من أطفال على يديّ هاتين اللتين امتلأتا بالأساور.

- تعلمين يا جدة زيتونة بأني لا أحسدك على أساورك الجميلة هذه، لأن ذهب الدنيا كله لا يغنيني عن سلامة هذا الولد.

- اسمعيني يا ريحانة.. أنا أعرف أنك خائفة على الأحمراني وتنصبين المناحات كل حين خوفاً عليه، مع أن الأقدار في النهاية ليست

بأيدينا، فنحن لا نخلق أنفسنا، ولكن الله هو الذي يخلقنا، وهو الذي بإشارة واحدة منه يقول للشيء كن فيكون، أو يقول له مت فيموت. وقدر الأحمراني سيكون بين الكاف والنون إن شاء الله.

تفر ريحانة برأسها، ولا تفهم ما هو الكاف والنون.. هل سيأخذ الله أمانته، أم أنها مضمومة إلى أجل آخر؟ تقول لها:

- لا يمنع هذا أن أكون خائفة عليه يا حبوبة.

- أنا الجدة ولست الحاجة ولا الحبوبة. فهيا كفي عن خوفك.

- ليس الأمر بيدي.

- ماكو داعي صدكيني. القدر حاسب حساباته ومو دائماً قاسي بجراحاته؟

- وشنو هاي؟

- الدنيا مثلما تجرح تداوي.

- وليش تجرحنا؟

- يا جماعة شلون عيشة هاي؟. تالي وياك ريحانة؟ وينه الأحمراني؟ شوفينياه دا أبوسه. عندك طفل مثل فلعة القمر، فلماذا أنت خائفة وحزينة طوال الوقت. تعال تعال يا بعد رويحتي. تعال تعال يا بعد عمي وخالي.. ربي يحفظك من كل شر. ويهدي أمك ويشفيها من كل قهر.

- دا دا دا دا دا.

ناغاها الأحمراني بضحكة بلهاء، وعبَر الأشهر الأولى بسلام..

-6-

وراحت أيام وجاءت أيام أخرى، وطلعت للأحمراني أسنان جديدة، ونشنش واشتد عوده، وأصبح هو لعبة آسيا الأثيرة، إذ تقوده إلى الدرج وساقاه تتعثران في المسير، وتعنفه كلما بال على نفسه، أو تخاطب نفسها قائلة، وهي تهم معه بالصعود إلى السطح:

- آني رايحة يم الجيران فد شوية وأرجع.

كانت آسيا هي التي حولت اسمه من أحمراني إلى أحمتاني، ثم استلت منه أمه ريحانة اسماً مستخرجاً من أسماء المصطفى هو الأحمداني. ودار هذا الاسم بين الأفواه حتى استقر في الاسماع بدلاً من اسمه الأول، واستحسنته تحية أم ياسين جارة ريحانة التي جاءت تزورها وتخبرها بأنها اشترت ديدان القز لكي تربيها وتستخرج منها خيوط الحرير... فقالت ريحانة لجارتها تحية إنها تسمع بهذه الديدان لأول مرة، وقد تفكر في أن تربيها أيضاً مثلها، غير أنها عدلت عن الفكرة عندما علمت بأن عليها أن تقتل الفراشات ببخار الماء الساخن قبل أن تمزق خيوط الحرير أثناء خروجها من الشرنقة..... بهتت آسيا من كلام غير مفهوم لأي من أمها أو جارتهم تحية، وحكّت شحمة أذنها ذات القرط الدائري، إذ كانت أمها ريحانة قد خلعت الخيط الأسود السميك، ووضعت بدله ترجية(*) كذابية من الباغة.

حرك الأحمداني رأسه الأحمر بصعوبة للوصول إلى ورقات الخس

التي قدمتها له آسيا، ثم فعلت العكس، وأبعدتها عن فمه بعد قليل، وهذه لعبة أخرى من ألعابها الماكرة تتحايل بها على الأحمداني لتجعله يبكي... نهرتها خالتها نومية عن إزعاجه، فقررت أخيراً رفعه من الأرض، وخبأت رأسه في كتفها بحجة حمايته من الجرادات المحلقة في الهواء. انغرست أظافره في كتفها أثناء تحريك أنفه من خلف كتفها لاستنشاق الهواء مرة أخرى، وبعد ذلك أصبح هناك إثنان يبكيان.. الأحمداني ساقطاً على الأرض وهو في عامه الأول من العمر، وآسيا ذات الأعوام الأربعة تقلد بكاءه وتولول بصوت عال، بحيث تبدو وكأنها في مثل عمره:

- تعالو أحمتاني خرمشني.. تعالو أحمتاني وقع على الأرض.

تنال العقاب في كل مرة.. وتُمنع من الصعود معه إلى السطح.. إلا أن النسيان أشد بأساً من الغضب.. فتعود آسيا إلى ارتقاء الدرج درجة درجة مع دميتها المحشوة بالقطن، أو مع الأحمداني أخيها الصغير.. السُّلّم عبارة عن درجات مثلمة بدون سور، تتفلش حافاتها بمجرد الصعود عليها، وهي التي سقطت آسيا منها عدة مرات بسبب انتعالها للقبقاب الذي أفرجت عنه أمها ريحانة بعد أيام من سقطتها الأولى. ولكي تتفرغ ريحانة مع أختها نومية لشؤون االطرشي وزرع الخضروات، وتذويب الملح الخشن فوق حُگة من خيار التعروزي المكبوس مع قرون من الفلفل الحار، استدعت الجدة زيتونة التي زادت من العمر بسطة أخرى، وطلبت منها أن تحمم آسيا والأحمداني في يوم الخميس.

- دا أتعبك معي جدة زيتونة.

- أنا أعرفك من قبل أن تأتي أنت إلى هذه الدنيا، وأمك ظلت لي كالأخت للأخت.. كان الجميع يناديني بالحبوبة ما عداها هي، فأصلها من بغداد حيث تسمى القابلة هناك بالجدة.. وشيئاً فشيئاً أخذ جميع أهل السماوة ينادوني بالجدة بدلاً من الحبوبة، فقد أعجبتهم تلك الكلمة الجديدة التي جاءتهم من بغداد المدينة.

- أعجبتهم؟ أم أعجبتك أنت.

- أعجبتني وأعجبتهم. فهم طيبون بطبعهم و ليسوا منغلقين على انفسهم.. ما عدا أباك طبعاً.. كان فد واحد قنقينة والله ما يجرعه(*)، وأمك كانت كلما تلبس عبايتها، لتهجّ من أبيك تأتي إليّ... كانت تصل بابي، ثم تتندم وتظل جالسة على العتبة. أما إذا عزمت على الزعل الحقيقي، فتطرق بابنا بالمطرقه الصغيرة، فأفهم أن الذي يطرق الباب هو أمك، لأن المطرقة الكبيرة لا يطرقها سوى الرجال. وأختك نومية أيضاً ها ها ها، وبعد أن مات أبي، لم يعد الرجال يطرقون بابنا إلا عندما يُدرك نساءهم الطلقُ.. سليمة(*) كرفتهم كلهم.. يقضون وطرهم ثم يتركون خلفهم امرأة مسكينة غارقة في بحر من الدماء. ما شفنا يوم واحد راحة من وراهم، عساهم روحة بلا ردة.

- ولكن الأحمداني سيكبر أيضاً، ويطرق بابك عندما يُدرك زوجتَه الطلقُ.

- ولن أسمح له بالدخول، لأنه لن يكون هناك سوى العظام.. وا أسفاً أن يحدث هذا لواحدة شيطانة مثلي.

- لن يحدث هذا.. أنتِ أقوى من الموت يا زيتونة.

صمتت ريحانة، ثم قالت:

- ما هذا؟

- مابك؟

- ما هذا الذي فوق أصابعك يا زيتونة.. إنها متسخة فلا تضعيها في فم الأحمداني.

- ماذا تريدينني أن أفعل؟ فقد مر شرار النار يركض من أمامي، وأسقطني على التراب دون أن يقصد..

- شرار النار؟

- هل تعرفينه؟

- نعم أعرفه، وسمعت به من الناس. كما ألمحه أحياناً يمر من دربونتنا مع كلبته براقش.. فلماذا يعيش وحيداً بدون زواج؟

- يقال إنه تزوج من امرأة طلقها بعد أشهر. ولم يتزوج بعد ذلك.

- وماذا يفعل لجني رزقه؟

- أمره غريب هذا الرجل.. إنه يركض طوال الوقت.

- ما هذا؟ أيعيش مثل النحل، أم مثل الطيور؟

- يعيش مثل الشرار الذي يتطاير من النار، ولا يرتاح من الركض أبداً.

لم تتلفت ريحانة لا يمنة ولا يسرة، ودخلت في حالة محيرة من الشرود بحيث لم تنتبه إلى امتلاء شعرها بأوراق شجرة القلم طوز التي اصفرت وتهدمت بسبب ما فعلته بها أقلام الخريف، وراحت الجدة زيتونة تخلع ملابسها قبل البدء بغسل آسيا مع الأحمداني في طشت واحد. فأخذت بالبكاء تو خروج الأحمداني خاملاً من شدة النعاس، وليس هناك أمامها سوى ذرف الدموع عندما يحين دورها للدخول إلى الطشت.. وقد يحدث أحياناً أن تكف عن البكاء عندما تغني لها زيتونة (البنية وشحلاها كصابيها وراها، إجوي يخطبوها وأبوها ما نطاها)، ولكن هذه المرة لم يغنِ لها أحد، وحدث ما لم يكن في الحسبان... ردت الجدة زيتونة فوطتها إلى الوراء قبل الإنحناء على الطشت، ففتحت آسيا فمها بذهول.. وصوبت نظراتها على الأثداء الهائلة التي تنزل بشكل متهدل ومتلاصق بحيث تختفي بطن الجدة زيتونة وصرتها.. لا يوجد بين زيتونة وآسيا سوى ذينك الليتين اللحميتين اللتين تدلت فوقهما ضفيرتان رفيعتان مبللتان.. أصبحت آسيا تتربص بهما طوال الوقت بحيث كفت عن البكاء، وتحولت إلى كتلة من التركيز.. بل لم تجازف بإغماض عينيها حتى وإن حال الصابون بينها وبين ذلك المنظر..

- نومية جيبيلي مي نظيف من الحنفية لأن آسيا بالت بالطشت.

الماء أصبح دافئاً بالفعل بعد جلوس آسيا في الطشت، ثم حان أجلها عندما سقطت الليفة الخشنة الثقيلة على ظهرها.. فراحت تبكي مرة أخرى، وظلت تبكي بشكل متواصل منذ أن خضتها الجدة زيتونة من

الصابون، وحتى أن نشفتها، وضفرت شعرها، و ربطت رأسها بلكجة(*) شدتها مع الضفيرتين على شكل عقدة محكمة. انتهت المحنة وآسيا لا تزال تنظر إلى أثدائها المتدلية، ولم تنتبه إلا والجدة زيتونة تمص ماء الاستحمام من أذنها، ثم تبصقه على الأرض.

- تفو.

- تفووووو عليك أنتِ يا أم الدخان.

ريحانة بعد أن سمعت صوت بصقة آسيا، عرفت بأن الحمام قد انتهى، فجاءت وهي لا تزال بحالتها المحيرة من الشرود.. جاءت لتجد ابنها أحمداني قد نام بعد الحمام وتدّثر تحت اللحاف الدافئ الذي تندلق من ثقوبه قطع من القطن أصبحت بُنّية اللون بسبب الغبار، فتعرف أن الجدة زيتونة قد هدهدته بترنيمتها ذات التقاسيم الحزينة (عاب المال وعاب الدولة وعاب فراش المابيه بولة)، أو قامت باللعب معه، ومداعبته مداعبة الرجال الذين يتشاقون فيما بينهم بأن يمد أحدهم يده فجأة لمسك ذكر الآخر، فإن تراجع الأخر فهو ليس بشجاع، ومن ظل ثابتاً فهو حقا رجل.

لم تتزوج زيتونة قط، ولكنها مست أعضاء الرجال جميعاً عندما ولّدتهم أمهاتهم.. ولا تتعاجز عن حركتها بين البيوت حتى لو مات الجميع من التعب.

-7-

بعد ولادة الأحمداني، استغرق الأمر عدة شهور لكي تسترجع ريحانة قوتها، و تقف على حيلها مرة أخرى، فتعاود سيرتها الأولى في الصعود إلى السطح لكي تسجر التنور، أو وقت الضحى لكي تنشر الملابس والحضائن المغسولة، وعندما لا تكون مشغولة بالحياكة أو غيرها من شؤون البيت، فأنها تستعيد أحاديثها الطويلة مع جارتها تحية أم ياسين، وتناجيها همومها عبر سياج سطحها الذي يطل على المكان الذي تضع فيه تحية صوانيها المليئة باليرقات وأوراق التوت..... أكملت ديدان القز آلاف الدورات لتنسج ثوباً من الحرير، ويجب على تحية التخلص منها قبل أن تتحول إلى فراشات تمزق الحرير أثناء خروجها من الشرنقة.

وفي يوم من تلك الأيام مرّ شرار النار، ذلك الرجل الذي يجري بسرعة كبيرة، والحمامات تهب في كل اتجاه عندما يمر، فانتبهت ريحانة إلى أنه أصبح يتوقف طويلاً عند الباب كلما مر ببيتها. ويتثاقل عن الركض أو المشي عندما يسمع صوتها.. وراحت تعرف بمجيئه من صوت أقدامه ونباح كلبته براقش.. فتشعر بالفرحة كلما أحست بقدومه.. بل تموع روحها عندما تسمع وقع خطاه.. وذات يوم تجرأت وهبت إلى النافذة تفتحها لكي تراه، فلم تر سوى عجاج الغبار...

صبت الهواء الحار من صدرها إلى الفراغ، وراحت تغني بصوت أحلى من سجع الحمام:

- شرار النار راح.... يطارد بلا جناح.. ولما جاز العكد طاح.. محد سمع محد صاح..

صاح شرار النار من هول المفاجأة.. لم يصدق بأن الغزال الشارد يغني من أجله، ثم ارتد على عقبيه و نزل الدرجات إلى العكد مرة أخرى، فصاح الراعي: الى أين؟ قال شرار النار: عيوني علاوي، ألا تسمع هذ الغناء!، ولم يكن يسمع هذا الغناء أحد سوى شرار النار، فعاد أدراجه، وسأل قلبه في الطريق: أين هي؟ فأشار القلب إلى نافذتها، وتلفت إليها.. فوجدها قد أُغلقت.. وقلبه قد صفن.. امتلأت عينه بالدموع، و لم يتمكن من أن يقود قدميه مرة أخرى أبعد من تلك النافذة..... اختفى الطريق من أمامه.. وليس هناك من أثر للغزال أو لصوت نقرات الغزال.. أصوات البيت أختفت.. والدنيا كلها اختفت أيضاً... غير أن صوت الغناء ظل محلقاً في كل حقل يمر فيه، وعلى كل أرض يركض فوقها.. ومن يدري ربما يتمكن يوماً من التغلب على عقدة خوفه من الأماكن العالية، فيوّكر كالصقر فوق سطحها.. ثم يقفز للهروب من سطحها بعد أن يراها.

استمر تعارفهما بطريقة الغياب هذه.. هو يتوقف ليحدثها دون كلام أو سلام، وهي تصغي إليه في صمته، وتفرح لهذا الإحساس الذي جرف قلبها، واخترق روحها دون مقابل سوى انتظار لاذع ولذيذ للحظة لقاء سريعة تطيب لها نفسها، وتغْنيها عن كل ما عداها من لحظات الحياة التي خلت من زوجها شمس الدين.. أصبح ذلك الانتظار المثير هو أجمل ما في العمر كله، وعرفت ريحانة أنها لم تعرف جمال الدنيا، ولم تعش عمرها قبل ذلك أبداً. أبداً.

وقعت ريحانة في حبه دون أن يدري.. وهي أيضاً لا تدري ما هو هذا الإحساس المختلف الذي شعرت به، ولم تجربه من قبل مع زوجها شمس الدين.. فمع شمس الدين كانت تتسخ ثم تغتسل بعد كل مرة يلامسها في الفراش، ومع شرار النار تشعر بالحب الذي يتحدث عنه الناس، الحب الذي يتلاعب فقط بالروح دون أي اتساخ واغتسال.....

إحساس يشبه الخوف من الوصول إلى مكانها، والإمساك بها، عندما كانت تلعب الركيضان مع صديقات الطفولة.. فيظل قلبها يقرع قرع الطبول أثناء الاختباء بين غرف موجودة بموجب ستائر تنزل فوق بسط تفوح منها رائحة الخراف..

«وفي مرة من المرات نمت أثناء الاختباء، فظل أهلي يبحثون عني في كل مكان، ولا يجدون لي أثراً. كنت نائمة في حضن التنور، وعندما استيقظت من النوم حصلت على طن من الضرب المبرح تطاير معه كل الرماد من ملابسي وشعري... أنا الآن أيضاً مختفية وغائبة عن كل شيء من حولي، وعندما يمر شرار النار من الدرب أشعر بالوهن والنحول والهلع، وبأني أريد السؤال عنه دون ان أستطيع حتى النطق باسمه، لئلا يعرف أحد بحبي لهذا الرجل الذي يمر قرب بيتنا كل يوم.. أحكي عبر السياج مع جارتي تحية في كل موضوع صغير وكبير، حتى إذا جاء اسمه، أو سمعت صوت أقدامه، يتقلب قلبي كالماء المخضوض في القربة... ثم يظل يرتجف بضربات قوية تكفي لعجن صاع من الطحين. لا أريد أن يكون هناك سياج أختفي خلفه عندما يمر شرار النار، أو رماد أغرق فيه.. فقط أشعر بخليط من الحزن والفرح في روحي، وأقف حائرة أمام فوهة التنور لا أدري ماذا أفعل، يتخربط كل شيء ولا أدري ماذا أفعل.. وقد أغني بصوت عال لكي يسمعني عندما يتثاقل قرب باب البيت.».

لا ينفتح بالعادة هذا الباب، ولا يجد شرار النار خبراً أو أثراً لأصبع واحد يظهر منه، ولكن هذا الشح لم يدفعه أبداً إلى اليأس أو التوقف عما يريد... لديه أحلام تفوق التصور يحلم بها ليل نهار، وهي لا تفارقه في ركضه فوق الارض، أو نومه تحت السماء، وعن طريقها يتواصل مع ريحانة بكلام خفي غير منطوق، أو قد يقف أمام الباب، ويطرقه، فتجيبه ريحانه بصوتها الشجي: من؟ وعندما يسمع صوتها يبتسم من كل قلبه، ثم يمضي، فهذا هو كل ما تمناه.

ظل شرار النار يواصل المرور بباب بيتها مخلفاً وراءه سحابات

من الغبار لم تنقطع لعامين مرتا كلمح البصر، كبرت خلالها الطيور، وباضت الدجاجات مرات عدة، وخلق الله من الشبه أربعين كتكوتاً جديداً زحفت من تحت جنح الدجاجة السوداء العرجاء، كما ظهرت درجات من ألوان الأحمر والأصفر والأخضر زهزهت بها أصناف غريبة من العَلوجة والحلويات، فمر بائعها في الدربونة وصاح:

- گرگري يا گرگري.. بيع أمك واشتري.

ذاق الأحمداني العَلوجة واللوزينة وبيض اللقلق ببركة شرار النار الذي أصبح يتوقف ليختصه ببعض الحلوى كلما رآه جالساً على العتبة. وحملت تلك الأيام الأحمداني طفلاً مدللاً بين يديها، وملكاً صغيراً تهفو له القلوب قبل العيون، إلا أن هناك شيئاً لم يعرفه، أو ينتبه إليه أحد سوى الأحمداني نفسه. فقد أخرجت أمه قرصاً ساخناً من الخبز، وراحت تنفخ عليه.. فرآها الاحمداني تطفيء شموع أعياد الميلاد التي لم يكن يعرفها أحد من الناس، ولن يعرفها أحد، لا في السماوة ولا في غير السماوة، إلا بعد انقضاء سنين عديدة وأكثر من حرب عالمية طاحنة.

يكون جالساً على العتبة، وبعد قليل يكون في مكان آخر يسمع أصواتاً لا يسمعها أحد، ويرى صوراً تزدحم فيها الوجوه والأمكنة بين صالات واسعة وحدائق جميلة تتسرب كالرمل من بين الأصابع.. كان يحلم بأناس يرتدون ملابس غريبة ويطيرون في الهواء.. يتحدث إليهم، ويتحدثون إليه، وعندما يستيقظ من الحلم لا يعرف أين هم، فتنكب أمه ريحانه على السياج، وتشتكي لجارتها تحية أم ياسين غرابة أحواله، وتأخر كلامه، فتقول لها تحية:

- لا يخاف طفل له أب، فكيف بعبد له رب؟.

-8-

كل يوم تقريباً تقف ريحانة على السياج تنشر ثياب أحمداني وآسيا على الحبل، أو تتحدث بصوت عال مع تحية جارتها، ولا تترك مكانها إلى السياج حتى يمر شرار النار ويسمع صوتها، فيبطيء في ركضه ويرمي لها نظرة تكويها بدون نار.. كأنها لم تتنهد بهذه الطريقة حتى في صبوتها، وكأن الهواء لم يخرج من صدرها بذلك الزفير المدّوخ الذي يجعلها تخجل من تلك المشاعر التي تنتابها لأول مرة في حياتها.. وعندما يأتي النوم، تختلف الرحلات إلى الأحلام التي تبحر فيها، ففيما مضى كانت ترى مخاوفها أثناء نومها تتحول إلى حقائق، فتظهر عارية بين جمع كبير من الناس، أو تسقط في هوة مظلمة مليئة بالماء الأسود الذي تنزلق إليه دون أن ينجدها أحد. قد تحلم بأحداث أخرى أيضاً، أكثرها مرعب ومخيف، غير أنها مجرد تخيلات وأضغاث لا تأخذها بشكل جدي، إلى أن بدأ ظهور شرار النار في حياتها، فأصبحت ترى غير ما كانت تراه، وتغيرت أحلامها من كوابيس إلى أوقات من الراحة والسعادة، أجملها عناقات لا تشبع منها أبداً.. مع حرية تامة في أن تفعل ما تشاء مع شرار النار الذي يحملها على ذراعيه، فتقضم من كتفه قبلة خاطفة تجدها أطيب من قضمة الخبز الساخن للجوعان. عندما تستيقظ من الحلم لا تعرف ما هذا الذي حدث لها، وكيف أصبحت على هذه الدرجة من التوهان، بحيث عافت نفسها حتى الطعام وراحت تأكل أقل مما تأكله البلابل.

التنور في السطح.. تأتي منه ريح طيبة هي رائحة الحطب.. وزوجها شمس الدين عندما بناه عمل دكة حجرية في كل جانب منه، فالجهة اليمنى لوضع شنگ العجين، والجهة اليسرى لوضع الخبز الخارج من التنور، أما أسفل التنور فهناك فتحة صغيرة باتجاه الشمال، تدخل منها الرياح أسفل التنور، وتؤجج فيه النار. وتلك الفتحة هي التي وضعت ريحانة رأسها قربها لكي يضرب أذنها الهواء الحار، ويتوقف طنين الحشرات في اذنيها.. شمس الدين عندما بنى التنور على سطح البيت في شهر رمضان، قام بدفع الفطرة عنه، وكأنه فرد من افراد العائلة، وكان يأتي لها بحطب النخيل من البساتين لكي يكون الخبز بمذاق رائع طيب أحسن من مذاق الخبز المخبوز بحطب العاقول.

رائحة الحطب المشتعل غطت على روائح الهواء الذي تشبّع ببعض الغبار. وريحانة تتقدم خطوات باتجاه السياج الواطئ للسطح، عسى أن تلمح ظلاً يؤرجح قلبها في الفراغ. و في مرة من المرات خبطت رأسها بسقف البيتونة التي تؤدي من السطح إلى الدرج.. وبعد أيام، لاحظت جارتها تحية ارتجاجها أثناء المشي، فظنتها تتضور من الجوع.. كما انتبهت إلى ان ريحانة لم تعد تفهم الكثير مما يقال لها، وحتى عندما تحدثها من تيغة الطين عن بعض النسوة الذاهبات إلى الشط مع المشربيات فوق رؤوسهن، لا ترى ريحانة شيئاً، وكأنها مسطورة بشيء ما لا تبحث عن سواه.... كانت غارقة في الذهول، حتى وهي تسأل تحية سؤالها الغريب:

- هل يوجد في السماوة من يجيد القراءة والكتابة؟.

- منطقتنا منقطعة عن العالم، وقد لا نجد فيها شخصاً واحداً يقرأ ويكتب قراءة حسنة جداً سوى زوجي أبو ياسين أو الملا عليوي.

- من هو الملا عيوي؟

- إنه رجل طيب، ولا يشبه الملا حسن.

- ومن هو الملا حسن؟

ضحكت تحية ضحكة طويلة، وقالت:

- يقال إنه كان دجالاً يدّعي أنه ملم بأمور الدين، ويجيد القراءة والكتابة، وفجأة جاء من بغداد معلم لغة عربية لتعليم القرآن لأطفال القرية، وجن جنون الملا حسن، وشعر بأن وصول المعلم إلى القرية يعني نهاية لدجله وخداعه، وأخذ يتربص به وينشر الأكاذيب عنه حتى توصل إلى حيلة متقنة للتخلص من هذا المعلم القادم من بغداد. فقد جاء مرعوباً إلى ديوان العشيرة، وبعد أن سلّم على المعلم، وتعرف عليه قال له: أنا على يقين بأنك لا تجيد القراءة والكتابة! وأتحداك أن تكتب كلمة عربية واحدة؟ فاستغرب المعلم وأجاب قائلاً: يا ملا حسن، كيف تتحداني بهذا الشكل وأنا أستاذ في اللغة العربية؟ فأجاب الملا حسن: يا أستاذ، إنك تريد أن تستغل أمية رجال القرية لتسيطر عليهم، وأتحداك أن تكتب كلمة عربية واحدة، بل أطلب منك أن تكتب كلمة (حيّة)، وأنا أكتب كلمة (حيّة)، ونعرضها على القوم وهم سيقررون من منا يجيد القراءة والكتابة. أنا أم انت؟ ذهل المعلم من طلب الملا حسن، ووافق عليه على الفور، وبدأ المعلم يكتب حيّة، وكذلك قام ملا حسن بكتابة حيّة!! وبعد الانتهاء من الكتابة قدّم الاثنان ورقتيهما إلى رجال القرية، وأخذ القوم يتدارسون ويتباحثون عمن كتب كلمة حيّة بشكلها الصحيح، وبعد فترة قرروا بأن حية الملا حسن كُتبت بالشكل الصحيح، وأن حية المعلم لا تمت الى فصيلة الحيّات بصلة...!!فهجموا على المعلم وأشبعوه ضرباً، ثم طاردوه حافياً خارج القرية، بل شكروا الملا حسن على إنقاذهم من شر هذا المعلم.

- ماذا فعل الملا حسن لكي تنال حيّته إعجاب أهل القرية وتفوز على حيّة المعلم؟

- المعلم وبحسن نية كتب الكلمة بالحروف العربية، أما الملا حسن فرسم خطاً متمايلاً على شكل حية!! وبما أن أهل القرية كلهم أميون، لم يفهموا كلمة حية المكتوبة بيد المعلم، بل كانت حية الملاّ حسن هي الأقرب لعقليتهم باعتبارها رسماً يشبه الحية. هأ هأ هأ.

لم تضحك ريحانة. قالت:

- لا أريد للحية أن تكون من نصيب الأحمداني.

- عندما يكبر دعيه يأتي مع ابني ياسين الذي يواصل أبوه تعليمه القراءة والكتابة؟

- قلبي يعتصرني في كل غروب. أشعر بأن الأحمداني لن يعرف كيف يعيش، وأشفق عليه من الأذى.. استيقظت عشرات المرات لكي أنادي عليه، وأتأكد أنه لا يزال حياً. سأنتظر حتى يبلغ الرابعة من العمر، فأجعله يتعلم القراءة مع ياسين، ويكون قوياً مثله.

- .....

- ما بك يا تحية؟

- أشم رائحة دخان. هل أشعلت التنور؟

- .....

- ريحانة هل أشعلت التنور؟

- نعم أشعلته.... يااااااه..

- .....

استدارت ريحانة، فوجدت ابنتها آسيا تحمل أخيها الأحمداني، وتقترب من التنور... منذ زمن طويل وهي تدور به حول تلك الفوهة.. أما الآن فقالت له:

- هيا ادخل.. روح جيب اللعابة (*) مالتي من التنور.

مد الأحمداني رجله خائفاً إلى الفوهة، فرأته تحية وصرخت بآسيا من خلف التيغة لكي تتوقف.. تأخرت تحية في صرختها تلك، وفقدت ريحانة قدرتها على النطق، غير أنها تحركت بسرعة، واستطاعت جر ابنها من حافة الفوهة الدائرية التي يتصاعد منها الدخان. هرعت إليه كالمجنونة. وشعرت بالخجل من نفسها، لأنها لم تنتبه لابنها أو ابنتها كما يجب.. أخذته من فوهة النار.. وصرخت والصهد يلفح وجهها:

- هل ستسقط أنت الآخر في النار؟.. سميتك بالأحمراني لأنك مشرب بالحمرة، لا لكي تسقط في التنور مثل أخيك تراب..

لا زالت آسيا تتشبث بالأحمداني، وتريده أن يعود إلى حضنها، فضربتها أمها وأزاحتها من طريقها، ثم انتشلت ابنها الأحمداني، وضمته إلى صدرها، فالتف عليها خائفاً مثل التفاف أغصان الكرمة حول شجرة القلم طوز.

-9-

مرت سنة وجاءت سنة أخرى، فأدلهم الجو بالعجاج، واختفت الطيور من السماء، ولاذت بين زوايا البيوت وسعفات النخيل. هرعت ريحانة نحو السطح ثم لمّت جميع ملابسها من الحبل لئلا تتسخ بالتراب، أو تطيّرها الريح بعيداً عن السطوح.. وقبل أن تنزل من السطح فوجئت بشيء متكوم قرب التيغة، وبدعاء عال ينطلق من خلف السياج.. اقتربت من هذا الشيء المتكوم، لتجد ابنتها آسيا تغطي رأسها داخل يديها اتقاءً للهواء العالي.. قالت لها:

- ماذا تفعلين هنا؟ هيا قومي.. سيّطيرك الهواء العالي.

هزت آسيا كتفيها إلى أعلى وأسفل، وقالت:

- ما ما ما.

- هيا قومي.

- ما أقوم. ما أريد أنزل من السطح.

- أين أخوك؟. أين الأحمداني؟

- خالتي نومية وضعته بالغربال.

هرعت ريحانة نحو الدرج وصاحت بنومية:

- نومية. نومية. هل الأحمداني معك؟

- لماذا تصرخين؟ هل أنا طرشاء؟

- أنا لا أصرخ.. أجيبيني.. هل الأحمداني معك؟

- إنه هنا معي يجلس قرب الحنفية. أما تسمعين صوته؟
- الهواء العالي لا يجعلني أسمع أي شيء. هل أنت متأكدة أنه معك؟
- نعم إنه معي.
- الغبار يتزايد. ألا تشعرين به؟.. لماذا لا تدخليه إلى البيت.
- إنه لا يقبل أن يتحرك من مكانه.
- سأنزل إليه حالاً.

عادت ريحانة إلى ابنتها آسيا وقالت لها:

- تعالي.. تعالي..
- .....
- هيا قومي وانزلي من السطح.
- لماذا تصرخين علي؟
- أنا لا أصرخ.. لا أصرخ. لا أصرخ. راح تخبلوني. هيا انزلي من السطح.
- ما ما ما أنزل من السطح.
- لماذا تبكين؟
- آني محد يحبني، ولا يغنيلي.. أنتو ما تحبوني. أبد ما تحبوني ولا شوية تحبوني. تحبون الأحمداني وبس.

بدأ الغبار يتزايد في الهواء، ويحمل نُذر عاصفة قوية قادمة من الصحراء... ظهرت تحية من خلف التيغة وهي تتلو دعاء الغبار، «اللهم أني أسألك خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به». راحت آسيا تبكي ومن فمها تتطاير التفلات على الجارة تحية، وعلى أمها ريحانة. قالت إنه لا أحد يحبها في هذه الدنيا كلها.. وهي ميتة من الجوع، ولا تجد شيئاً تأكله.. نهرتها أمها ريحانة عن هذا الكلام، ثم احتضنتها وأرادت تقبيلها، غير أن آسيا رفضت القبلة، وظلت جالسة قرب التيغة التي حفرت فيها ثقوباً

دائرية، تدردم مع نفسها، وتستخرج أعواد التبن من الطين، ثم تضعها في فمها.

- هيا قومي وانزلي معي يا آسيا. أنا أحبك والله.

- تفو عليك.

- ولج قومي، شلعت لي قلبي.. الهواء انترس(*) بالتراب.

- تفو عليكم أنت والجدة بزونة.

- الجدة زيتونة شعليها.

- هذا التراب ديطلع من خشمها.

نزل الجميع من السطح الذي تحول هواؤه إلى اللون الأحمر- وناموا يشعرون بالضيق من كدر الهواء الذي يتنفسونه، وعاندت آسيا أمها مرة أخرى، ولم تقبل النوم في حضنها، فظلت ريحانة تتودد إليها، وقد شعرت بالفعل بأنها قد أهتمت بالأحمداني على حسابها، ثم احتضنتها، وظلت سهرانة طوال الليل ملتصقة بها، إلا أنها لا تستطيع أن تمنع نفسها من التفكير بشرار النار، حتى وهي تحتضن ابنتها.. بحيث لم تنتبه إلى ضياع الترجية من أذنها إلى أن نبهتها آسيا نفسها إلى ذلك.. وعدتها ريجانة أن تشتري واحدة أخرى بدلاً عنها، وظلت لا تعلم كيف يمكن أن يستحوذ هذا الرجل على تفكيرها حتى في ليلة مزعجة متروسة بالغبار..

بلغت تلك الليلة الرملية المزعجة أشدها، وجاء صباح اليوم التالي، فأشرق النهار على أغرب ما يمكن أن تراه عيون ريحانة.. ولم تعرف ما هو ذلك الشيء على وجه اليقين حتى اقتربت منه وتأكدت تماماً. إنه ليرة تلمع بإشعاع مرتجف تحت الشمس.. وتستقر فوق أحجار السياج الذي يفصل سطحها عن سطح جارتها تحية.. اقتربت ريحانة من سياج السطح ومدت نظرها قبل أيديها، فظهرت لها ليرة رشادية من الذهب الخالص موضوعة فوق التيغة التي اعتادت أن تقف بقربها لتناجي جارتها تحية أم ياسين.. كان الجو قد مال إلى الصفاء بعد عاصفة الغبار، فاستطاعت ريحانة أن تصعد الدرج من أجل تفقد آثار الغبار على

السطح، وعلى روحها أيضاً.. نادت ريحانة على تحية أم ياسين، وطلبت منها أن تأخذ ليرتها الذهبية، غير أن تحية أنكرت أن تكون الليرة لها، أو تعرف عنها شيئاً.. فماذا يعني هذا؟ ارتجفت يدا ريحانة مع قلبها.. لا تدري ماذا تفعل، أو كيف جاءت ليرة الذهب إلى هذا المكان. تلفتت في كل الاتجاهات، ثم حملتها ونزلت إلى أختها نومية، وقالت لها:

- شوفي نومية شلگيت.. شوفي شلگيت.

فتحت نومية فمها، وهرشت شعرها الذي لم تغسله منذ أسابيع، و ظلت تبحلق في الليرة مطلقة صوتاً مضطرباً يشبه ارتجاف صوت طائر العلي شيش عندما ينتفض.. وبسبب هذا الصوت جفلت الدجاجة السوداء العرجاء، ثم حركت مؤخرتها قليلاً، فإذا بمجموعة من الكتاكيت السوداء ينفرط عقدها، وتتطشر من تحت جنحيها. ركضت آسيا خلف الكتاكيت، وراحت تطاردها في جميع الاتجاهات وهي تضحك.. جعل المنظر خالتها نومية تصرخ:

- يبووو. امتلأ حوشنا بالسواد. ماذا ستقول الجدة زيتونة إذا جاءت دارنا بعد قليل؟.. هل ستقطع أرجلها جميعها؟.

لم ير الأحمداني شبيهاً لهذا الأمر من قبل، ولا يعرف ما هذه الأشياء التي ظهرت فجأة من تحت الدجاجة السوداء، ولماذا تركض آسيا خلفها وهي تضحك. تجمدت حركته وظل ساكناً في مكانه يترقب ما يحدث، و عندما يصل الأحمداني إلى هذه الحالة من السكون سيرى صورة أخرى للباحة نفسها، وقد تغير المكان وأصبح هو بوجه جديد، وهناك وجوه أخرى للجميع اختلفت باختلاف الأيام التي تركض من تحت شجرة القلم طوز. لم يكن يعرف ما هذا الذي يراه؟ وكيف تتغير الوجوه بهذه السرعة أمام عينيه، وتنتقل من زمان إلى زمان آخر بينما هو باق في مكانه.. ظل واجماً لوهلة ثم تحركت عيناه، وهرب بنظره إلى أعلى.. إلى سعفات النخلة العالية لبيت الجيران، فلما وجدته آسيا في هذه الحالة من السكون، اقتربت منه وسألته هل أنت خائف يا

أحمتاني؟، غير أنه لم ينتبه إليها. فأدارت آسيا وجهه باتجاهها، وجدته ذاهلاً، فقالت له:

- لا تخف يا أحمتاني. إنها كتاكيت صغيرة.

ثم احتضنته للمرة الأولى بحنان، وطبطبت عليه كما لو كانت أمه.

الساعات تمر وريحانة لا تدري ماذا تفعل.. الليرة الرشادية لم تغادر تفكيرها قط، ولهذا ظلت شادرة الذهن لا تملك القيام بأمر محدد سوى ضرب أخماس بأسداس. فكرت بهذه المصادفة التي جعلت الليرة الذهبية تظهر عندما تضيع ترجية آسيا.. ثم تساوت عندها تلك الليلة مع نهارها، وظل بالها مشغولاً بماحدث حتى حان وقت الفعل، وجاء اليوم التالي، فسألت ريحانة عن مكان الملا عليوي، وذهبت إليه، لكي يقرأ لها ما مكتوب عليها. قال لها:

- الوجه الأول انكتبت عليه عبارة (ضرب في القسطنطينية عام 1327)، والوجه الثاني رسمت عليه طغراء عثمانية للسلطان الغازي عبد الحميد الثاني ابن السلطان عبد المجيد.

- هل هي من الذهب الحقيقي؟

- نعم، ومنها اكتسبت العصبة اسم الغازية، إذ كانت هذه الليرات الذهبية توضع عليها، فترتديها النساء من ذوات المال في الأعناق والمعاصم..

أعجبت ريحانة بعلمه الغزير وسألته:

- هل تعادل هذه الليرة قمرياً واحداً؟

قال الملا عليوي:

- كلا، فإن القمري من أضعاف المتليك الذي يعادل قرشين، أما الليرة فعملة نقدية تعادل مئة قرش عثماني، وبما أن القرش يعادل 40 بارة فهي إذن تعادل 4000 بارة.

شهقت الجدة زيتونة عندما سمعت ذلك كله، وعرفت أن ريحانة قد عثرت على كنز ثمين. قلبتها بين يديها، وقالت إن هذه الليرة إما أن

تكون هبة إلهية، أو إنها عطية شيطانية حولت بصقة الإبليسة آسيا إلى ذهب خالص فوق السياج، ولم تقتنع ريحانة بكلام الجدة زيتونة، وظل قلبها يرتجف مثل ارتجاف جرو صغير بلله الماء. كانت تزفر التنهدات من صدرها طوال الليل.. وتستيقظ أكثر مما تنام.. إلى أن حل الصباح فتحقق ما ظلت ريحانة تضرب به أخماساً في أسداس، وظهرت جارتها تحية في اليوم التالي ترتدي قلادتها الذهبية ناقصة ليرة واحدة... عرفت ريحانة أنها هي التي وضعت لهم الليرة لتنقذهم من الفقر والجوع. إذ لم يعد يوجد في بيتها سوى الحشيش الذي تزرعه نومية حول حوض الماء، والتمر الذي يتصدق به شرار النار على ابنها الأحمداني. أما الخيار المخلل فتبيعه للناس مقابل ثمن بخس تشتري به قليلاً من الشعير والقمح.

حلت المجاعة في البلاد، وأصبح البر يباع بالمثاقيل والقراريط، ولم تكن تجد ريحانة ما تضعه في التنور عندما تسجره، سوى بضع باذنجات، تزرعها أختها نومية قرب الحنفية، لتسد الرمق، أو تسكت جوع آسيا ببيضات الدجاج التي تعثر عليها في القن، ولا تصيب منها ما يصيبه الأحمداني من أفضل الطعام.. فشرار النار أينما وُجد، يعود من رحلته بشيء من الزاد للأحمداني.

-10-

- اخرج من هنا يا أحمداني.

تمسكني خالتي نومية بيمينها، وتُدخلني خلف ستارة الطارمة بعيداً عن خزان فخاري صغير يملؤه السقاء بالماء كل أسبوع مرة واحدة، وعليهم الاقتصاد الشديد في استعماله حتى يحين موعد مجيئ الماء في الحنفية.. لا تذهب نومية إلى الشط لأنه بعيد جداً. والسقاء القصير هو الذي يأتي إلينا، ويمد يده إلى نومية ويلعب معها، فتضحك له، وتكشف عن ساقيها، لكي يزيد من كمية الماء، بدون أن تدفع له الأجرة من التمر واللبن، وقد يأخذها الى السطح، فيتركان ظليهما على السلم ذي الدرجات المثلومة.

مضت الأيام، وأصبحت الدنيا لأحمداني عالماً من الظلام والظلال.. وعلى الأحمداني أن يبتعد باستمرار عندما يأتي هذا الرجل في غياب أمه لكي يختلي بخالته نومية التي ترسم بقلم الكحل الأسود عيناً أخرى تحت عينيها... ينزل السقاء من السطح، فيكون سواد الكحل قد انتقل من عينيها إلى أنفه، وشعرها قد تبعثر في كل الجهات، فيستغرب الأحمداني مع نفسه أن تقبل خالته نومية الصعود إلى السطح مع هذا السقاء القبيح، من أجل أن يخنقها، أو يتصارع معها، أو يجرها من ظفيرتها إليه.

-11-

الجدة زيتونة أيضاً لمحت تلك الظلال، فقد جاءت من بعيد، ورأت نومية منحنية على فوهة التنور تقلّب رماده بقضيب معدني طويل، أعادت رفع رأسها إلى السطح لترى ما ظنته ظلاً للتنور يتحول إلى ظل آخر.. نظرها من بعيد أفضل منه من قريب، كما أن حاسة شمها قوية، فدلتها على امتلاء ثياب نومية برائحة غريبة لم تستطع زيتونة أن تتعرف عليها جيداً.

امتلأ قلبها المقطوع من شجرة بالشكوك، وأرادت أن تصعد الدرج على حين غرة، لكي تعرف ماذا يحدث هناك، وأوشكت فعلاً على الصعود، غير أن الكتاكيت السود اعترضت طريقها، ولم تكن قد رأتها من قبل، فتطيرت منها، واستشاطت غضباً وبصقت عليها لترد عليها آسيا بملخ فوطتها من رأسها، وتتف عليها بصاقاً مصحوباً بالرذاذ للمرة الأولى. تدلى اللعاب من فم آسيا، ولم يصل إلى أي مكان، فضحكت الجدة زيتونة منها وانصرفت عن الدرج لتعطيها بعض بذور البطيخ الجافة عسى أن تجعل حظها معها يتغير قليلاً. ابتسمت آسيا بالفعل وأحنت رأسها خجلاً، ثم راحت تأكل البذور مع الكتاكيت التي جذبت بعضها بعضاً في ركضة عاصفة باتجاه آسيا، وظلت تأكل من كفوفها المفتوحة حتى البذرة الأخيرة. كان هذا تدبيراً من القدر لكي تختفي الظلال، ولا تصعد زيتونة الدرج، فلا ترى ما يراه الأحمداني عندما يأتي السقاء ويفعل ما يشاء.

حدث ذلك كله في ذلك اليوم الذي عادت فيه ريحانة من الملا عليوي، وقبل أن تنزع عباءتها راحت تخبر الجدة زيتونة بقصة الليرة الذهبية، وتحكي لها ماذا قال الملا علوي عنها.. فشهقت الجدة زيتونة عندما سمعت ذلك كله، ونسيت شؤم اللون الأسود للكتاكيت، كما وتبخرت كل خيوط الشكوك الخفية حول الرائحة الجديدة التي تعط من ملابس نومية بدلاً من رائحة الخل. قالت:

- تذكري يا ريحانة أني قد قلت لك بأن الحكة باليد اليمين ستجلب المال الوفير، وأنا التي قرأت لك الأدعية والأذكار أملاً بالقليل من الخير و البركة. فانفتح لك باب السماء عن رزق وفير، وجاءك القدر بليرة ذهبية ستقيمك على الكثير من الخير. إنك مدينة لله بالحمد، ومهما فعلت لن تفي واهب هذه العطية حقه.. فصلي ركعتي شكر إذا كنت نظيفة من الطمث، ثم صلي صلاة الاستخارة لتري ما أنت فاعلة بهذا القرض الحسن من الله.

ليس من الصعب على ريحانة أن تبيع كنزها هذا لكي تقيم الأود.. وإنما كان صعباً على الجدة زيتونة التي لا تريد التفريط بها، وعلى أختها نومية التي رفضت ذلك رفضاً قاطعاً، لأنها أرادت تأطير الليرة بإطار يحليها، فتتدلى من الرقبة بدلاً من بيعها مقابل جارك(*) من القمح الأبيض، أو حُقة(*) من الملح الخشن، أو طول(*) من قماش البازة القطني الناعم يغنيها عن بقجة الدلالة سعدية التي تبيع النساء ما يحتجن اليه من الأقمشة والجواتي والبويمات.

يوم الأحد كان هو اليوم الذي جاءت فيه الدلالة سعدية أم الدروب إلى ريحانة، تضع على رأسها جتاية(*) مزينة بالبلك والكلبدون، فجن جنون الجدة زيتونة ومنعتها من شراء القماش، وقالت لها: أما نهاك أحد؟، كيف تفكرين بتبذير الفلوس على الخرق والمرق، ولماذا تريدين رهن الليرة يا ريحانة؟ ستحتاجين لها في يوم أسود، فكوني صاحية الذهن واشتري القماش الذي تحتاجينه بما تبيعينه هذا الشهر من بيب(*) الخيار المخلل. أو بعض مدات الصوف القديمة. ثم أدخلت اصبعها في

فمها لتدفع ما انحشر من عجين بين لثتها وباطن فمها. كانت الأخت(*) على خدها تتحرك أثناء ذلك. فهرعت اليها ريحانة وقالت:

- أين وضعت هذا العجين؟

- شنو؟

- هل وضعت العجين في فم الأحمداني؟

- ليس في فمه.

- لعد أين في أذنه؟

- لا.

- أين وضعت العجين؟

- هذا اسمه عجين الأسطى للدمامل والفراكيس؟

- أين وضعتيه؟

- لا تظلين تدردمين. خليني بدردي. ترة محصورة بولة وراح أبول على نفسي.

- روحي بولي، منو لازمك؟

- بعديش..

هاع هاع هاع.. ماع ماع ماع. ضحكت نومية بصوت يشبه معمعة الخراف، ثم قرفصت على الأرض، ووضعت بساكيل الدشداشة في فمها من شدة الضحك.

لا يوجد ما يُسلّي أهل البيت سوى زيتونة، كم من أطفال ماتوا على يديها، كم من عجين وطين وضعته في أفواههم وآذانهم وشعورهم. ومع هذا فإن كل امرأة تفاجئها بطنها بألم المخاض يجب أن تناديها لكي لا تموت، فتأتي تمقمق بفمها، وتجقجق بقبقابها الذي لم تنقلب فيه أبداً بالرغم من ثقل سمعها وكلل بصرها وتحولها عجوزاً كُركُمَّة(*). وعندما شعرت آسيا بأن الجدة زيتونة لن تبالي بسؤال أمها، أو توافيها بالجواب، اقتربت منها، وقامت بواجبها المعهود:

- تفووووو عليك.

كانت قد مضت أيام طويلة على هدية بذور البطيخ.

-12-

جُنّ الأحمداني بسبب دشداشته الجديدة التي أخاطتها له أمه ريحانة، فقد أنسته آلام الختان، وشعر، وهو داخلها، كأنه حمامة تطير وتتقلب في عاصفة من الهواء الطيب النقي... وبسبب ملمسها القطني الناعم كالريش انتعش وتململ وشعر براحة تامة افتقدها مع دشداشته القديمة التي ضاقت عليه واصبحت مهترئة من كثرة الغسل. كان شرار النار هو الذي اشترى له القماش من المغازة، فأخاطته أمه بيديها، وأهدت شرار النار مَدّة صوفية قديمة منقوش عليها طائر لقلق.

في ذلك اليوم وضع شرار النار خطاً فوق جدار البيت بعود حاد مغمس بصبغ اللوزينة، وأعطى الأحمداني هدية أخرى كرسياً مصنوع من الجريد جاء به من عكد النجاجير في السماوة. رأى أحمداني الكرسي لأول مرة في حياته مع الكاميرا في يوم واحد. وها هي الآلة الشمسية مصوبة نحوه لالتقاط الصورة، فخجل الأحمداني ولزمته الضحكة.. سألت أمه ريحانة: من هذا الرجل المختبئ تحت القماش الأسود؟ قال لها شرار النار إنه رجل مسيحي من أهل الموصل يقتفي أثر المناظر حول دجلة والفرات، ثم يلتقط لها الصور بكاميرا يحملها اسمها كوداك، وقد عرفها الإنكليز والأتراك حتى قبل أن يأتي هو إلى الدنيا بعدة سنوات..

فهم الأحمداني ما هي الصورة، وكأنه يعرفها منذ زمن طويل، ورأى زمناً آخر بوجه جديد.. توضع فيه الجامات السوداء داخل حوض

محلول التحميض من أجل تظهيرها، إذ يحّركها المصور بعصا تحريك زجاجية في غرفة معتمة تماماً، ثم يعلقها في الملاقط بأيد ترتدي قفازات من القطيفة السوداء.. ستكون الصورة لزجة قليلاً قبل جفافها.. وسيُمنع الضوء من الدخول إليها لئلا تحترق. كيف يتخيل ذلك كله، و كيف يمشي في طريق مختلف يرى في نهايته تلك الصور معلقة بالملاقط على الحبل. الأحمداني نفسه لا يعرف.

ريحانة كانت قد استْغبت، وخرجت للدرب متظاهرة أنها لا تعرف بوجود رجل غريب، وعندما رأت شرار النار خفضت صوتها بحياء أمامه، وتصرفت بعينيها كما لو كانت تظن أن الاحمداني لا يفهم ما يجري حوله، غير أن الأحمداني كان يشعر أنها تلعب لعبة غامضة لا تتطلب سوى أن تخفض صوتها وعينيها، فما هذه اللعبة التي تلعبها مع توبة شرار النار؟ إنه يبتسم لها كلما رآها، ويقف وسط القمامة وكأنه واقف في حديقة تتساقط فيها أوراق الربيع فوق رأسيهما..

قال لها إنه يتوقف عن الركض عندما يرى الأحمداني، وتصبح خطواته ثقيلة وباردة كالجليد، فلا يستطيع أن يمضي بعيداً أو يكون مختفياً عنه.

- هل سمعت بالمغناطيس؟

- كلا.

- هو شيء يجذب الحديد إليه، وأحمداني مغناطيس يجذب كل من يراه.

- أينك منذ عشرة أيام؟

- كنت في واحة أعمامي. وأريد أن آخذ الأحمداني إليها ذات يوم.

- .....

- ألا زلتِ مقهورة على الأحمداني؟

- انا لست مقهورة، وإنما خائفة عليه.

- لا ينفع الحذر من القدر، والله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر.

- أنا أدعو له في الليل والنهار.

- فقري عيناً بالأحمداني لأن كل من يسمع به يتمنى أن يراه. فإن رآه أحبه على الفور.

اتخذ توبة شرار النار من الأحمداني الصغير حجة للقاء ريحانة، ثم هفا إليه، وأصطنعه لنفسه وألقى عليه محبته، فكان الأحمداني كلما رآه يرفع يديه ويتعلق برقبته كواحد من ذويه.. فيتهلل وجه شرار النار، ويعبر به بين البيوت والدرابين... حينئذٍ يستقبل الأحمداني العالم الفسيح بعينيه، ويرى صوراً تصوّرها وتخيلها من قبل، تتحول إلى حقائق ينظر إليها، ويتأملها كلما أخذه توبة شرار النار في نزهته اليومية.

الأيام مرت مع السنين وإذا بالجدة زيتونة تشيخ ويكبر أولادها الألف الذين ولدوا على يديها خلال عملها الطويل كقابلة... أصبح بعضهم آباءً شبعوا من الدنيا، وأصبحت الجدة زيتونة تنظر أمامها، فتقول بأنها لا ترى شيئاً سوى حفرة مظلمة كباقي الحفر المظلمة التي تراها في الوجوه والدروب والأجسام، فهي قد أصبحت كليلة السمع والبصر، وإذا كان لديها شغف قوي بالحياة يجعلها تقوى على الخروج من بيتها، والتحايل على تلك الحفر المظلمة، فإن السيد حمزة صاحب علوة الشعير والحنطة والحبوب يشهد بأنها ترمي الكثير من حجاراتها في الظلماء، ويجب أن تُصرف من البيت فور خروج المولود من بطن أمه، لأنها أصبحت تنسى كل شيء، بل لا تجيد حتى قراءة الآيات القرآنية التي تحصّن بها الأطفال.

وفي أحد الأيام جاءتها خالته نومية تطرق الباب من قارعة النساء الصغيرة، لتقول لها بأن أختها ريحانة قد أعدت لها حساء العدس بالبصل والكمون. الجدة زيتونة لم ترد حتى بعد أن قرعت الباب بمطرقة الرجال الكبيرة ذات الصوت العالي، ثم برد حساء العدس وهي لا ترد، كما قالت نومية، فأخرج شرار النار العود من جيبه، وسأل الأحمداني

أن يحسب عدد الخطوط التي شخبطوها على الجدار بصبغ اللوزينة. وإذ عرف أنه قد مرت ثمانية أعوام على أول لقاء لهما، أدرك أن الأيام قد كرت، وأن وقت الركض قد حان، وعندئذ نزلت الدموع من عيني أمه ريحانة، وهي تسرع نحو بيت الجدة زيتونة لتلقي عليها نظرة الوداع.

الجدة زيتونة رفعت رأسها.. وقالت:

- ماذا تفعلن هنا؟

وجمت نومية وريحانة ومعهما آسيا. فأعادت الجدة زيتونة سؤالها:

- ماذا تفعلن هنا.

تولت آسيا الجواب المعتاد على سؤالها، وطالبتها أمها بالكف عن التف عليها لأنها كبرت، ويجب أن تكون عاقلة بعد الآن، وسرعان ما عادت ريحانة تجر ابنتها آسيا خلفها للحاق بالأحمداني الذي طلب شرار النار أن يأخذه معه للركض.. وعندما وصلت باب البيت أخبرتْ الأحمداني بما حدث، فرأى الجدة زيتونة وهي في المئة من العمر، ويحملها الناس على محفة.. وليس كل ما يراه الأحمداني قد حدث، فقد يحدث بعد أعوام، أو أنه يحدث في خياله فقط. وقد لا يحدث في السنة القادمة. أو لا يعرف متى سيحدث بالضبط.

ذلك الاختلاف لا يعني شيئاً بالنسبة للأحمداني.. بل هو يعتقد أن العقول جميعاً تعمل على الشاكلة ذاتها، ولم ير الحقيقة كاملة إلا عندما جمع تلك القصص المُفصلّة التي يراها سلفاً عن أحداث سيمر بها في المستقبل، فوجد أنها لم تكن أوهاماً يتخيلها للتسرية عن نفسه، وإنما كانت صيحات تحذير من أيام قاسية في الحياة. ما أصبح يزعجه، بعد انقضاء أيام الطفولة والرخاء، هو أنه وجد نفسه يرتاب في تصرفات الناس وأفعالهم. وعندما يأتي توبة شرار النار إلى بابهم ويُسمِع ريحانة بعض كلمات مبهمة.. تتحول كلماته إلى وحوش تؤرقه في الليل وتمنع عنه المنام.. بل يفقد السيطرة عليها، وتلتف عليه كحبال غليظة.. تلك الأحلام كانت تنتابه، لأنه فهم وعرف أخيراً بأن أمه قد صرعت توبة

شرار النار بالنظرة القاضية، منذ أن أتى له بكرسي الجريد والتقط له الصورة الشمسية.. ففي التالي قال لها:

- ظننت أني وُلدت رجلاً، ونسيت بأني كنت صبياً حتى رأيتك فعاد هذا الصبي إلى الوجود.

هناك باب يقف عنده في الطفولة، وباب يقف عنده وقت الفتوة. وعندما دخل الأحمداني من الباب الثاني، وجد أمه تقف هناك لتمنع عنه الحزن، وسرعان ما فهم الأحمداني أن أمه لن تتخلى عنه، وأن تلك الأفكار السوداء التي كانت تراوده أحياناً، يمكن تبديدها بمهارة الركض السريع التي تمكن منها مكنة كبيرة، ولم يمنعه عن مزاولتها شقاء الجهة اليسرى من صدره، بل على العكس استنفرت قواه، وجعلته يمتطي الأحزان برجليه، ويحوّلها إلى عرق غزير ينز من جسمه، ويتبخر لتجف معه آلامه وأحزان السنين..

- ألا ينقصك شيء يا ريحانة؟

- لا ينقصني شيء.

- كيف لا ينقصك شيء وأنت تعيشين في جول(*) فارغ من كل شيء؟

- عندما تقف أنت على الباب أشعر بأن الجول يتحول إلى حديقة.

- كيف هذا؟

- أنت تمنح الأحمداني أباً لم يره.

- ألا أمنحنك أنت أيضاً شيئاً كالفرح؟

- وجودك يملأ حياتي فرحاً ما دمت تمنح الأحمداني فرحته.

تبدد الدخان، وقرت عيون الأحمداني بكلام أمه المخلصة لابنها، ومهما دارت عجلة الزمن، فإنها تبقى واقفة على الباب من أجله، متعلقة به أكثر من أي شيء آخر في الدنيا. وحتى عندما تكون الأيام مهملة في حقه، فإنها تعوض ذلك بحنانها. ولا تسمع من توبة شرار النار كلمات التودد، إلا وترد عليها باسم الأحمداني:

- جلبت لك بعض التمر واللبن.
- أعطه للأحمداني.
- إنه مديوف بالحليب أيضاً. ألا تتذوقينه؟
- سأتذوقه بعد الأحمداني.

-13-

ليتني لم أذهب يومها للبستان.. ليتني تأخرت فى النوم وتغيرت الأقدار بحيث لا أجد رجلاً غريباً تحت شجرة النبق.. أنا أعيد مع نفسي شيئاً حدث.. أريد أن أمنع حدوثه ولا أستطيع.. أريد تغييره إلى قدر آخر ولا استطيع.. ما حصل قد حصل، وسأراه تماماً كما حصل، ولباقي الحياة حتى وإن كانت قرناً من الزمان.. علمني هذا بأن بعض الأحداث التي لا يمكن تغييرها يجب إخفاؤها، وعند إخفائها ستجعل روحي مثل طائر محبوس في قفص.. يتنفس الهواء ويرى الدنيا دون أن يعلم بأنه سجين يتحرك بين عدة حواجز لا يعرف أنها تحجزه عن العالم الأكبر خارج القفص.

كان الأحمداني قد بلغ التاسعة من العمر، وكان مسكيناً جداً، وله شعر ناعم، ومظهر حسن للغاية ينبهر به كل من يراه.. وكانت أمه تقول بأن وجهه الجميل يشبه وجه الطفل الرضيع المستيقظ تواً من نومه، ولهذا تخاف عليه وتختصه بالعناية، لأنه يحتاجها أكثر من آسيا التي أصبحت صبية تتدبر أمورها جيداً.. توجد شجرة سدر قرب البستان الذي تمدد فيه أبوه شمس الدين ميتاً، وفي ظهيرة يوم ربيعي صعد الأحمداني على سياج البستان لكي يقطف حبات النبق من السدرة التي تجاور السياج، فرآه غريب ضيف الله صاحب الشجرة وأشر له، وقال:

- انزل.. تعال انزل.

- .....

- أنا صديق أبيك فلا تخف. سأعطيك ثمر الشجرة كله.

نزلتُ من شجرة السدر، فرفع دشداشته وقد أخرج عضوه من لباسه الداخلي. سارعت للهروب منه، وإذا به يتلقفني وتلتف حولي سيقانه، ثم راح يجذبني من شعري إلى الوراء.. شعرت بضلوعه تؤذي جسمي الصغير، وبماء دافيء يكويني فأنهض مذعوراً من النوم. أبحث عن نفسي فلا أجد سوى جار البستان صاحب شجرة السدر يعبث بما تحت دشداشتي ويملأ يمينه بعمري كله.. علمتُ بأني يجب أن أخفي ما حصل، وأنه عار يستدعي صراخ أمي وجزعها الشديد.. علمتُ، دون أن يخبرني أحد، بأني يجب أن أستمر بالتمتمة أو الكلام، وأتظاهر بأن لا شيء قد حدث، وإلا اكتشفت أمي وأختها وبنات عمها أيضاً بأن خطباً مشيناً قد حدث لي.. يا ترى ما هو هذا الشيء الذي حدث لي؟ أنا أيضاً لا أعرف، ولا أستطيع سوى إخفاء أي أثر لهذا السر الرهيب.. ووحده الركض مع توبة شرار النار يجعلني أنسى آلامي، وكأن هناك ستاراً ينسدل عليها. تساءلت وقلت لنفسي: إن شجرة السدر تكون عادة مزدحمة بالعصافير، فلماذا أتذكرها صامتة تماماً؟ لماذا كل العصافير غير موجودة.. لماذا أنا صامت دائماً وكأنني غير موجود؟

بلغ خوفه هذه الدرجة من الناس بحيث يغيب عن الدنيا كل يوم، ويخرج من بابها إلى مغارة الحياة المظلمة، وهناك يغرق في خيالاته الممضة، فيجد ممرات البستان غارقة بالمياه الطافية من إحدى السواقي التي امتلأت بالماء إلى آخرها. بدا أن البستاني قد انشغل عن بستانه، فقام الأحمداني بسحب خرطوم المياه من الساقية الممتلئة ووضعه في ساقية أخرى.. أمتلأت الساقية الثانية بسرعة.. فراح يبحث عن الحنفية لكي يغلق ضخ الماء فيها فلا يغرق البستان.. بقي لعدة أيام لا يخرج من البيت.. يذهب خلف ستارة الحمام ثم يعود منكمشاً على نفسه لا يفعل شيئاً.. لا يريد أن يلمسه أحد ولا أن يذهب إلى مكان، وزاد خوفه عندما قال شرار النار لريحانة بأنه سيأخذ الأحمداني إلى واحة أعمامه، ومن

هناك يخرجان في رحلات يومية وبعيدة، فيعلمه الركض السريع خلف القطار الجديد وبين الواحات والبوادي.

وافقت أمه ريحانة على الفور، وأخرجتْ للرجل الغريب، الذي تسميه أباً، بعض الكعك، وصبت له اللبن، فترك شرار النار كلبته براقش في واحة أعمامه، وراح العرق يتصبب غزيراً منه وهو يركض مع الأحمداني، ثم يعود ماشياً معه بعد يومين أو ثلاثة أيام... يبدو أنه قد حدس بأن الأحمداني قد أصبح حزيناً، ودون أن يعرف سبب حزنه، كان يريد أن يلهيه بتمرينات الركض التي تمحو الهم بالتعب. وفعلاً استطاع الأحمداني أن يلقي الهم بعيداً عن باله، وأن يفكر بأمر آخر هو تلك الواحة الجميلة التي عاش فيها لعدة أيام بين الزرع والماء، فرأى الرجال كيف يصيدون السمك والطيور، وكيف يرعون الجاموس والبقر، كما أكل الگيمر واللبن و الزبد، وتذوق المسقول الملبس باللوز الحلو.. بل وركب الحصان لأول مرة. وصعد إلى مراجيح العيد، فقد أعطته أمه قرشاً حميدياً واحداً يُسمى الصاغ، وكان يعادل خمس عانات من حسابات نعمان زوج عمته غزال الذي عاش حتى شهد الفلس والعانة والدينار الملكي الذي يشتري الدنيا كلها..

وصل الأحمداني مع شرار النار إلى البصرة والعمارة والناصرية، ورأى الجمال تمشي، وحادي العيس ينشد الأغاني، والجاموس يشرب من مياه الهور، ويغطس فيه حتى يكاد يتركه بلا ماء، كما رأى الرعيان والفرسان يسعون في الأرض، وبعض الناس يصطبغون بالماء الجاري في عيد يخصهم ويسمونهم بالبنجة، وهناك تعرفا على الحارث الروحاني، ويسمى الشماس أيضًا، وهو الذي يسير في الجنازات، ويقيم سنن الذبح للعامة، ولا يتزوج إلا بكراً، فإذا تزوج ثيباً سقطت مرتبته، ومُنع من وظيفته، إلا إذا تعمد هو وزوجته 360 مرة في ماء النهر الجاري. كان الحارث الروحاني يحمل غصنين متقاطعين على شكل صليب يغطيه وشاح أبيض تعلوه سبعة اغصان من نبتة الياس.. و كان يردد:

(في اليوم الذي نصب فيه درفش ششلام ربا، شع ضوؤه على ثلاث مئة وستين عالماً من عوالم النور).

توقف شرار النار طويلاً للتفرج على تعميد الشماس في ماء النهر، وتحول هم الأحمداني إلى ذهول، وعرف مللاً أخرى كل واحدة منها تصرخ بصلاة مختلفة، بعد ظنه بأن إله الناس إله واحد هو الذي يرمي الناس في النار أو يضعهم في الجنة.. أصبح في فمه طعم الحنظل، لأنه استنجد به حد البكاء عندما أصبح تحت صاحب شجرة السدر، ومع هذا تركه يفعل به ما يشاء. قال لنفسه:

- كيف يرضى الله بذلك؟

نظر الحارث الروحاني فوجدني مهموماً.. قال لي وهو يشير إلى المياه الجارية، بأن الزمن سيجري معك مثل هذا النهر بلا نهاية، ولو كنت أنت الذي قلت كلمتك، لما قال الزمن كلمته منذ البداية.. انصرف الشماس عني، فتخيلت منادياً يصيح عليّ لكي ينطلق الركب، ويتحرك القطار.. وعندما ينطلق لا يتوقف أبداً.. فكيف أوقفه، أو أقول كلمتي؟ عجبتُ من أمر الزمن. بالأمس كان حضن أمي هو سدّي ومرجوحتي التي ترفعني إلى فوق، واليوم نزلتْ بي الأرجوحة إلى أسفل وأمي لا تعرف بما حصل لي.

عرفتُ أن أمي ريحانة هي السد والسند الأمين، عندما لمحت لها الجدة زيتونة بأن توبة شرار النار يفعل ما يفعل معي من أجلها هي، فأنكرت أمي ذلك، وقالت لها بأنها قد آلت على نفسها أن لا تتزوج وتُدخل رجلاً غريباً إلى بيتها في وجود الأحمداني. كل ذلك الكلام سمعته قبل سنوات عندما اعترضت الجدة زيتونة على بيع الليرة الذهبية، ونهتها عن شراء القماش من الدلاّلة، فذهب توبة شرار النار بنفسه للساحة الترابية العامة التي هي بمثابة نقطة تجمع لكل شيء تقريباً.. التسوق والبيع والشراء وأيضاً اقتناء الدواجن وديدان القز المعروضة في صوان.. ومن هناك اشترى ثلاثة أمتار من قماش البازة المعروض في

مغازة الحاج نوري الذي كان يجيء ببضاعته من شورجة بغداد، وتحديداً من إبراهيم الشالجي، أول من أرسل ولده للاستانة ليدخل الكليه الحربية ويعود برتبة ملازم ثان..... من ذلك القماش أخاطت ريحانة دشداشة الطهور، وحدث أن جاء شرار النار أيضاً بهدية الكرسي في يوم الختان، و طلب من المصور الشمسي نعيم التقاط الصورة الشمسية... فظهرت تلك الدشداشة في كتابه الذي ضم تصاوير أخرى من معالم السماوة وحياة الصقارين فيها.

الصورة الشمسية عندما رأتها آسيا جلستْ على الأرض، وغرقتْ في سكون ثقيل كما تغرق ذبابة في صحن دبس.. اعتادت أن تبصق على كل شيء من حولها، وأن تطلق ناعورة البكاء كلما أرادت الحصول على شيء لا يخصها، ولكنها عندما رأت الصورة سكنت تماماً، ووقف على رأسها الطير، بل شعرت بالخوف من وجود الأحمداني في مكانين بوقت واحد..... المكان الأول أمامها في البيت، والمكان الثاني في هذه الورقة الصغيرة ذات الزوايا..

لم يبرهن نعيم بتلك الصورة على وجودي في باب البيت فقط، ولكنه استعمل تلك اللحظة من أجل زيادة عدد الصور التي يعرضها في كتابه، وسيمكنني أن أصبح مثله فألتقط الصور بعين أخرى ترى الزمن كله.. بدأت أعي بأني مختلف وغريب عن سواي من البشر. فهنا وهناك ومضات أراها تلمع أثناء الطريق. وتنبئني بما سيحدث على الطريق.. لا بد أن بيتي ومسكني سيكون هو الطريق الذي أقطعه كل يوم مع شرار النار.. فقد قضيت أفضل أيام عمري طائراً معه على الطريق، وأسوأه عندما لا أكون هناك. صحيح أني أركض فيه باستعمال قدمي، غير أن عقلي يمكنه التنقل بين الكثير من الأفكار أقلبها مع نفسي فقط، للتعرف على مكان آخر أفضل من المكان الذي أنا فيه. وقد يكون هذا المكان قطار الحجاز الذي ركضنا إليه.

هذا القطار الجديد الذي تمتد قضبانه إلى مكة، ليس إلا هياكل تملؤها

الرؤوس التي تمر على شكل أزواج من خلف النوافذ، من نظرة واحدة أعرف بأنه من الأفضل أن لا أصعد فيه، وأن هذه العربات المتلاحقة التي تتنهدها سكة القطار، ثقيلة جداً وبطيئة بحيث لا تمنحني شيئاً أتوقعه أفضل من الركض مع توبة شرار النار، فالقطار مشحون بالناس المسافرين فوق قضبان ضيقة متوازية.. رجل يجلس وقبالته بالاتجاه المعاكس رجل آخر مثل خياله، ونوافذ القطار تأتي.. تمر بنا.. ثم تروح إلى أمام.

- ألا يرجع القطار إلى الخلف يا توبة شرار النار؟

- كلا. لا يرجع أبداً.

في القطار رجال يقرؤون الأوراق التي تسمى الجرائد المشغولة بواقعة وصول والٍ جديد إلى بغداد هو الفريق ناظم باشا.. كان ناظم باشا من الولاة المصلحين في العراق، وقد أمر بردم الخنادق المحيطة ببغداد، وبذل جهداً مضنياً لشق شارع النهر بعد تهديم الدور القديمة، وهو أول شارع في بغداد كان مكسواً بالقير. قضى ناظم باشا عشرة أشهر فقط في بغداد، وفي تلك المدة القصيرة استطاع تشييد سدة ممتدة على طول حدود بغداد الشرقية.. متينة التشييد عالية بما فيه الكفاية، عريضة لا تخرقها مياه الفيضانات تمتد من الزعفرانية جنوباً حتى تصل إلى الصليخ شمالاً. وكانت السدة فعالة في حماية بغداد من الغرق فعلاً عند تضرر سداد دجلة شمالي بغداد وحدوث شقوق فيه لا يمكن السيطرة عليها. كما كان ناظم باشا هو أول من شيّد صيدلية حديثة ستفتح أبوابها ليلاً ونهاراً بعد أيام قليلة فقط. وعندما رأيت ذلك كله ورويته لتوبة شرار النار، صدقني من فوره، وقال لي:

- هيا نذهب إلى بغداد. نحتاج دواءً لابهامك.

باعت أمي ليرتها الرشادية أخيراً من أجل رحلة بغداد.... فإبهامي قد تورم من الركض وراح يكبر بحيث يعيق حركتي.. لا يؤلمني كثيراً، غير أني أشعر بأن قلبي لا ينبض في مكانه، وإنما داخل جلد الإبهام الأحمر المنتفخ، مما جعل توبة يحملني على كتفيه أغلب الطريق إلى بغداد.. أو

يسير بي فوق ظهور القوارب والمراكب.. حتى وصلنا دار عمتي غزال، الذي التقط فيه المصور نعيم صورته الشمسية، وكنت قد رأيته يلتقطها حتى قبل أن تسكنه مع زوجها نعمان، فالزمان دائم الحركة أمامي، وإذا أردت أن أرى شيئاً، فإنه يتقدم بي حتى نوال رؤيته، بحيث لا يتراجع عن شيء أريده أبداً.

الناس تحلم بما مضى، وأنا أحلم بما هو آت، وتلك الدار عندما رأيتها مع توبة شرار النار، وجدتها مطابقة تماماً لما رأيته في خيالي عندما عبرت الكثير من الحقول، وأصبحتْ خلفي أكوام الحصاد الذي تصادره الحكومة من أجل قوت جنودها.. لا توجد من حولي رياح شرقية أو عواصف ترابية، ومع هذا كنت أشعر بأني انتقل كالريشة في الهواء من صورة لأخرى حتى وصلت بيت نعمان الذي يقع على شاطئ دجلة، وهناك جلست معه ومع أولاده الذي كانوا يضعون الرمان في كفوفهم، وهم ينظرون إلى النهر.. كانت تلك هي اللحظة التي التقط فيها نعيم صورة شعلة المغنسيوم لعائلة نعمان زوج عمتي غزال.. كان بيتها يطل على النهر، وعندما تم تظهير الصورة فيما بعد لم أظهر أنا فيها.

حينئذٍ عرفت بأن قلبي يملأ فراغ الزمان من جانبيه، وأن الزمن يتساقط كأوراق الريح أمامي، بحيث أعرف ما سوف يحدث، وأرى قريبي نعمان سيصبح زوج عمتي غزال ويرزق منها بسبعة أولاد يلتقط معهم صورة شمسية، وفي مطعم حجي حسن الموجود بين العوينه وسوق الصدريه سيتناول وجبة غداء بثلاثين فلساً، ثم يذهب إلى السينما ذات الشاشة العملاقة والكراسي المصفوفة.. الوجبة عبارة عن مرق مصبوب فوق التمن، ولو كان الرز مع المرق في ماعونين منفصلين تكون أغلى سعراً بعشرة فلوس، أما السينما فقد دخلها نعمان ببطاقة درجة أولى قيمتها سبعون فلساً، وشرب زجاجة ببسي كولا قيمتها خمسة عشر فلساً.... وليس بعيداً عن دار السينما توجد محكمة يجلس ببابها ياسين ابن جارتنا تحية الذي ورث عن أبيه مقعد العرضحالجي.. لم يكن هناك حراس

عند باب المحكمة ولا موظف استقبال.. وبمجرد أن دخلت من الباب لاحظت أن مقبض الباب قد خرج من مكانه، وأصبح عرضة للكسر إن اصطدم به أحد.. قمت على الفور برده إلى مكانه، إلا أنه خرج وتدلى مرة أخرى، ولم أحاول إصلاحه مرة ثانية، لأني انشغلت بالنظر إلى أصابع ياسين التي كانت تخط الحروف على الورقة البيضاء لرجل أعطاه عانة مقابل كتابة عريضة للزعيم..... بعد أن انتهى من كتابة العريضة سألته:

- ما هي العانة؟

- العانة هي أربعة فلوس.. و قد جاء زعيم بعد الملك، فزادها وجعلها خمسة فلوس، فغنى الناس عاش الزعيم الذي زيّد العانة فلساً.

- وهل ستتغير الأسماء مثل تغير الفلوس والعانات؟

- سيسمي غازي ابنه فيصلاً، ويسمي عادل ابنه سلاماً، ويسمي عبد الكريم ابنه قاسماً.

- وماذا سيحدث لهم؟

- القدر لن يكون مؤاتياً للجميع.. وسيكون مشابهاً لأقدار الدمى التي لا حيلة لها فيما تفعله أمك، هل تذكرها؟

- نعم أذكرها.

- كانت تخيطها وتحشوها بالقطن من أجل آسيا، وعندما تتسخ وتتمزق ترميها إلى نار التنور.

- نعم هذا ما كانت أمي تفعله بها. وكان لدي أيضاً حمامة انكسر جناحها، فجاءت وقت الضحى، وذبحتها، ثم شوتها في التنور.

- آسيا كادت أن ترميك أنت أيضاً للتنور.. فأخبرني يا أحمداني لماذا لم تأت معي لتعلم القراءة والكتابة.

فعلاً لماذا فعلت أمي ذلك، لماذا لم تجعلني أذهب لتعلم القراءة والكتابة، ولماذا لم تترك الحمامة تشفى بدلاً من أن تذبحها..... الجدة زيتونة كان لديها كيس عميق روائحه القوية تشبه عطر المروج وعبق البخور.. وقالت يمكنها معالجة تلك الحمامة بالماء والخل والكركم..

وأنا أيضاً كنت أريد العناية بها وإنقاذها من الموت، فلماذا حولتها أمي إلى حمامة مشوية.. كيف أربي الحمامة ثم آكلها؟ كيف نشويها ولها وجه وعيون مثلنا.. كيف رأيتُ ياسين ابن جارتنا تحية كبيراً يجلس في باب المحكمة؟ كيف رأيت بيت عمتي غزال في خيالي قبل أن أراه فعلاً في رحلة الصيدلية. كيف رأيت ترجية(*) آسيا قد سقطت في التنور دون أن أخبرها بذلك..

لم نمكث في بيت عمتي طويلاً، بل خرجنا للذهاب إلى تلك الصيدلية التي شيدها ناظم باشا، وكنت قد تخيلتها عندما سمعت بها من ركاب القطار، ووجدتها تماماً كما رأيتها عند الوصول إليها.. وبعد أن اشترينا الدواء لإبهامي بقرش واحد التقينا بالمصور نعيم، الذي جاء يصور افتتاح الصيدلية.. كانت شفتاه تتحركان بحروف لا أعرفها.. وأنا كنت قد ظننت جميع الناس يتحدثون العربية فقط، إلى أن رأيت نعيماً يتحدث، بالإضافة للعربية، لغة لا أعرفها ويستعمل لسان المزمار لطحن الحروف بعد إخراجها.... فعرفت أن في الدنيا لغاتٍ غريبة وألسن كثيرة.

قال نعيم المصور لتوبة شرار النار:

- إن كلمة توبة تعني بالتركية الكرة أو القنبلة، وإن أباه كان يعمل طوبجياً في مدفعية الجيش العثماني، ولهذا فإنه يجيد اللغة التركية التي يتحدث بها مع الباعة في الصيدلية.

نعيم قال لنا أيضاً إنه قد افتتح محل للتصوير في مكان قريب من الصيدلية، وإن بجعبته صور جديدة عن أهالي بغداد.. لشيوخ يشربون القهوة، أو يركبون عربات الكاري، أو يبعيون التمر والخبز، أو ينقلون الصوف والتمر والحنطة.. كلهم غادروا الدنيا ولفهم النسيان، لولا أن أضاف صورهم إلى كتابه الذي عنونه باسم غريب هو (فكشنري)(*)، وكانت صفحته الأولى مزينة بديباجة من شعره يقول فيها:

ومر عام والأعوام أرقام.

والأزمان في نكث وإبرام.

فافرح بيومك واحفل به.

يمرك عيداً غداة أوهام.

وصف نعيم دنياه الجديدة بهذه الكلمات والصور التي قلّبها في كتابه لكي نراها، وإحداها كانت عن طفل يحمل علاقة من الخوص مليئة بالتبن، وفوق التبن يوجد ربع قالب ثلج اشتراه الطفل من المضخة التي أخبرنا نعيم بأن مدحت باشا نصبها في بغداد قبل أكثر من عشرين عاماً.. كانت تلك الصورة هي الوحيدة التي يظهر فيها ولد بمثل عمري.. بقيت أتأملها طويلاً، فقال لي:

- خذ الأخرى.

وكانت الأخرى لطفل آخر يركب عربة من عربات الكاري الذي أنشأه مدحت باشا قبل أكثر من ثلاثين عاماً.. وكان يقف واجماً مهرتل الإهاب داخل العربة، وكأنه قد أذنب في صعوده إلى هناك. قال نعيم بأنه ينوي أيضاً تصوير حجر الأساس الذي سيوضع لسكة الحديد في جانب الكرخ، فرأيت سلفاً كيف سيحضر الاحتفال رجال الحكومة العثمانية كافة من عسكريين وملكيين وسراة الوطنيين وقناصل الدول الأجنبية.. فتزيد صوره عشرين صورة أخرى سيلتَقطها نعيم لأولئك الكبار من الرجال، وللقاطرات التي جلبها الألمان، و لقصرين كبيرين شاهقي الارتفاع أثارا إعجاب أهالي بغداد، وسُمّيتا بقصور الجرمن.

هناك أيضاً في كتاب الفِكْشنري توجد صورتي بدشداشة الختان عندما كان شعري يلتف في خُصلٍ كثيفة وناعمة، وبقربي يقف شرار النار الذي كان ملون العينين وعلى شيء من الشبه بالنساء التركيات الجميلات.

قال نعيم:

- لولا تلك الصور لما تذكر أحد ماحملته يد الحي.. ما أحبه والتقاه.. وما تحسر عليه.

-14-

نعيم يتجول كثيراً بين الأرجاء والنواحي، وأخبرنا بأن التصوير الفوتوغرافي قد دخل العراق قبل عدة سنوات، وبرز فيه غواة يتجولون بين الشواطيء والبوادي، ويقومون بجولات طويلة لالتقاط تصاويرهم ثم عرضها في روما وأمريكا والاستانة.. كانوا يتمرنون على هذا الفن الجديد بالتقاط مشاهد يومية من حياة الناس، ثم شاع هذا الفن على يد المصور الكلداني كريم الذي جلب عدته من بومباي، وأفتتح محل تصوير في البصرة، وكان من البراعة بمكان، بحيث نشرت شركة انكليزية بعض صور التقطها على شكل بطاقات بريدية يتداولها الأجانب المقيمون في العراق مع ذويهم. أما المصور نعيم، فقد تدرب، كما قال، على يد الآباء الدومنيكان في الموصل، ثم ذهب يحمل عدته، ويتتبع حياة الناس ما بين نهري دجلة والفرات، فالتصوير عُرف في الموصل قبل بغداد بسنوات طويلة، بل شهدت هذه المدينة ظهور فن التصوير في العراق على يد (نعوم الصائغ) أول من ادخل التصوير كمهنة وهواية قبل غيره، إلا أن المصور الموصلي (حازم بك) يقول بأن جد والدته، يوسف الياس سنبل، هو الذي ادخل التصوير الفوتوغرافي إلى العراق.

خلّد نعيم في صوره ركضة طويريج وكسرة النهر، والنوارس التي تحلق وتنعق على شرائع دجلة، كما سجل هذا المصور بعدسته صورة مهمة التقطها لعائلة عمتي غزال التي كانت متجمعة في حوشها المطل

على النهر وقت الظهيرة والنار مشتعلة في المنقل. ولم تقتصر استفادة نعيم من ضوء الشمس في التصوير أو الطباعة، بل انه استفاد أيضا من ضوء شعلة المغنسيوم في انتاج أعماله، واستعملها في التقاط صورة لتلك العائلة الكونة من تسعة أفراد، والمتجمعة في حوش بيتهم المطل على نهر دجلة.

هذا البيت كان لعمتي غزال، وهو كبير جداً، ولن أنساه أبداً. كان حقا مكاناً رائعاً، وحديقته التي تطل على دجلة في غاية الجمال.. انتقلت عمتي إليه بسبب عمل زوجها نعمان في بغداد، والمنزل عال إلى درجة أن يرفع المارة رؤوسهم نحوه كلما مروا به.. وفي يوم من الأيام، ظلت عمتي غزال في المنزل وحدها، لأن زوجها في العمل، وأولادها السبعة مع جدتهم في البستان، والبستان يذهب إليه أولادها كلما أرادوا أن يأكلوا الطعام خارج المنزل.

عندما تكون عمتي داخل المنزل، فهي تعمل في تطريز مفرش من الاتمين وهو فن علّمتها أياه جارتها الأرمنية في الصليخ.. كانت قد جلست في الحوش، وتستطيع أن ترى النهر أمامها من سفح الدرج الذي تجلس عليه، ترفع عينيها إليه بين كل غرزة وأخرى من غرزات المفرش الذي تطرزه بوردة حمراء تحيط بها هروش وأوراق خضراء اللون. الوردة كبيرة بحيث أمضت ثلاثة أيام جالسة على الدرج كل صباح لتطرز فيها. وكانت ترفع عينيها من الخيط، الذي تستمهله أثناء سحبه من المفرش إلى أعلى، لكي تستمع برؤية سورات الماء التي تنشأ من نقرات النوارس الباحثة عن صغار السمك. ومن مكانها خلف المفرش صوبت عمتي غزال نظراتها إلى ذلك المصور الذي كان يجلس على ضفة النهر، ويضغط بيديه على كرة سوداء من الجلد، كما لو كان يحلب ضرع بقرة.. افترضت عمتي غزال، كما قالت، أنه كان صياداً للأسماك، وأن الآلة التي يحملها هي نوع جديد من عدد الصيد التي ترمى إلى الماء.. سألها ذلك الرجل إن كانت تسمح بتصوير البيت.. فسكتت ولم

تفهم ماذا يقول، وعندما اقترب من البيت لتصويره، كان نعمان زوجها قد عاد من عمله، ومعه أولاده السبعة يحملون الرمان من البستان، فقال للمصور تعال صورنا. أنا موافق، لأني أعرف ما هي الصورة.. فأنا أعمل في شركة لنج للبواخر، ورأيت الكثير منها هناك. إنها تخرج من خزانتك هذه على شكل جامة سوداء مثل الليل، وفي النهار تتحول إلى تذكار مضيء تراه كل البرية.

لم أظهر أنا في تلك الصورة التي رأتها كل البرية من الأستانة وحتى باريز، إذ خلال تجواله بين البلدان أخذها المصور الموصلي نعيم إلى الكثير من المعارض الفنية، وطبعها بثماني نسخ مكبرة، واستلم عنها جائزة نقدية مقدارها خمسمئة روبية، والروبية عملة نقدية تساوي خمسة وسبعين فلساً، وتعادل ليرة رشادية وليرة مجيدية.. كما استخدمت تلك الصورة في الكثير من المجلات للتعبير عن الحياة في بلاد ما بين النهرين، وقيل إن سعرها قد وصل إلى ألفي دولار في العام ألفين وعشرة. عندما أصبحت الصورة تعادل ألف كلمة، بل هي أبلغ وأقوى وأعمق تعبيراً وتأثيراً من كل التواريخ والكلمات.... ستصبح الحياة لا قيمة لها إلا إذا التقطت لها الصور بحكة واحدة وبأصبع واحد. وسيشتهر الأرمن تحديداً في مجال التصوير في العراق، فمنهم ارشاك وجان وخاجيك وعبوش وكافاديش وإمري سليم، والأرمني دون غولر من اسطنبول، والذي سجل تاريخ تلك المدينة الساحرة بالأسود والأبيض من خلال صور التقط معظمها بكاميرته اللايكا، ونشرها في مجلتين أمريكيتين.

أرّخت الصور التي كان يلتقطها غولر التغييرات السريعة التي حدثت في اسطنبول في تلك الحقبة، من مبانيها ومعالمها إلى أهلها وهم منهمكون في أعمالهم ونشاطاتهم اليومية. كما أخذ عمله إلى شتى أصقاع ومعارض العالم، ومثله فعل العراقي مراد الداغستاني الذي أثار إعجاب العالم بأسره بتصويره لحالات وحركات الناس التي قد لا تتكرر مرة اخرى، مثل صورة صياد الأسماك وهو يرمي بشبكته في نهر

دجلة العظيم، وصورة أرجل الخيول وهي تجر عربة الربل، وصورة أحد صيادي الأسماك وهو يدفع بزورقه عكس اتجاه مجرى النهر.

جك.. جك.. جك.

لم يبق أحد ممتثلاً لأسلوب نعيم إلا نعيم نفسه. ذهب هو مع كاميراته وبقيت صوره تذهل أولئك الذين يبهرهم جوهر الزمان الخالي وجريانه الذي يبعث على التأسي، أما الأكثر انكباباً على تصفح المكان بالأصابع والأزرار، فقد أصبح لعابهم يسيل كالماء الجاري على صور جديدة أخرى تتابع وتختفي بسرعة شديدة حتى تصيب العاقل بالدوار.. خلّدت عائلة نعمان وعمتي غزال تلك الصورة التي التقطها نعيم الموصلي، في الحي الجميل على نهر دجلة، فعبرت الزمان إلى زمان آخر حلت فيه مصائب كثيرة وسقط القتلى والجرحى بالآلاف، ألا أن الصورة لها علاقة بكل زمان ومكان، فلم تمت، وعاشت ليتعلق بها كل إنسان يبحث عن إنسان مضى... عن ماحملته يداه عندما كان حياً... ما أحبه والتقاه.. وما تحسر عليه.

هذا التذكار لم يتهيأ لنعمان أن يراه مطبوعاً في المجلات، غير أنه يفاجئني فأراه، وأفرح عندما أراه، ولا يغيب عن بالي أي مشهد أراه قبل أن يحدث، ذلك أن الوقت يمر بوتيرة مختلفة معي، فأنفذ في لحظات إلى زمان آخر، وحين أعود منه، أجد بقية خلق الله لا زالوا في عالم آخر. عشت طويلاً وأنا أخرج من زمان وأذهب إلى زمان.. وعقلي يسترجع كل شيء من مكان مختلف يملؤه الحزن والخوف من كل شيء.. لا أدري لماذا يحدث لي كل هذا، وهل الحارث الروحاني كان على حق عندما قال لي بأن الزمن هو السبب الأول فيما يحصل لي، لأنه قد قال كلمته منذ البداية؟ فكيف قال كلمته معي تحديداً بهذه الطريقة الغريبة.

في العادة يصاب الكبار بالعجز، أو يتظاهرون به من أجل أن تأخذ الأفكار الفتية حظها في الظهور، فكيف يمكن أن تأخذ كلمتي حظها في هذه الدنيا، وأنا أريد الانسحاب من كل شيء. أريد أن لا يعطيني أحد

انتباهه أو يعطيني أي شيء، أو يتحسر علي. لا أفهم كيف يحدث هذا، ولا أدري كيف لصغير مثلي أن يكون ساهماً دائم التفكير شديد القلق بهذه الطريقة. غير أن ذلك هو ما حصل.. فكنت أؤدي دورالمبتديء والمكتمل، أقف في بداية الزمن وفي نهايته، أو أدخل من الباب الأول والأخير في هذه الدنيا.

نعمان تزوج عمتي غزال وعاش حياة هانئة رخية بسبب الإرث الذي جاء من خالة مسنة لم تتزوج.. وقد شب فيما بعد عن الحرب وويلاتها، وأدرك زماناً غير زماني هو زمان السينما والسيارة والطائرة والمدرسة والنظارة الطبية وقلم الباندان والمذياع الذي غطاه الغبار مع الميزان الذي وقف عليه وقاس وزنه بالكيلوغرامات.. كان فرداً من عائلتنا، ولكن من أرومة بعيدة من أهلي تشتهر بسرعة الجري.. ومنها انحدر توبة شرار النار وقاطبته جميعاً.. غير أن عاهة نعمان زوج عمتي غزال منعته من مزاولة تلك المقدرة، وأفادته في عدم الالتحاق بعسكر الدولة العثمانية أو الفرار هروباً من الجندرمة ورجال الدرك الذين كانوا يلاحقون الفتيان والشباب من بيت لآخر.

أصبحوا يتعقبون الفارين ويطرقون عليهم أبواب البيوت، بل ويطاردونهم من فوق السطوح ومن خلال أشجار البساتين، وحين يعجزون عن القبض على أحد منهم، يلقون القبض على أبيه أو أخيه، ولا يطلقون سراح أحد منهما إلا بعد أن يسلم الفار نفسه، وعندما كثر الفرار من صفوف الجيش أصدر وزير الحربية أمراً بإعدام نصف الفارين المقبوض عليهم، وسوق النصف الآخر إلى ساحة القتال..

-15-

لا يغادر خيالي (طوب أبو خزامة) الذي رأيته في بغداد، وهو آخر شيء تبقى من حرب الفرس مع العثمانيين.. وقد قال لي توبة شرار النار بأن أهل بغداد يذهبون إليه ويكلمونه. وكانت الأم النفساء حالما تلد طفلاً تأخذه للطوب وتضع رأسه في فوهته، وتهيب بالطوب أن يجعله قوياً شجاعاً يرهب الأعداء مثله.. أردت أن أفعل ما يفعله أهل بغداد بأطفالهم، أردت أن أدخل رأسي فيه، فاصطدم يافوخي بحافة فوهته.. غدر بي المدفع وجرحني في جبهتي.

رأيت بغداد يوم لم يكن فيها سوى سينما وحيدة، وغير طبيب يوناني يطوف بين مرضاه راكباً حماره الاسود، وكان يعمل صباحاً في خستخانة المجيدية التي ذهب إليها زوج عمتي نعمان عندما بلغ عامه السبعين من العمر، فكانت قد تجددت وتغيرت وتحول اسمها من الخستخانة إلى مدينة الطب. أنا أصدق كل ما أراه وأسمعه.. ونعمان يتحرك من مكانه ليجلس على شريعة النهر في بيت زوجته عمتي غزال.. هناك أدرك تحولات الشاطيء كلها.. فأمضى جزءاً كبيراً من أيامه الطويلة يراقب الطيور والغرابيب مع عمال البناء يرممون قصر شعشوع الذي بناه الوالي العثماني عام 1908، فلما ذهب الوالي، سُمي القصر باسم التاجر اليهودي شاؤول شعشوع الذي اشتراه وأعاد بنيانه، ثم استأجره الملك فيصل الأول لدى تنصيبه ملكاً على العراق عام 1920، وبقي فيه لغاية حادثة الكسرة المشهورة في بغداد، والتي تعرض فيه المبنى للغرق عند فيضان نهر دجلة

عام 1927.. وظلت ملكيته تتنقل بين الأثرياء والوزراء والزعماء، بينما نعمان مستمر بمراقبة عمال البناء يرممون فيه ويزخون البول بين جنباته، حتى اشتراه الحاج أحمد البنية في عام 1953، وسكنه مع عائلته البغدادية، التي اشتهرت باهتمامها بالصناعة، مثلها مثل عوائل أخرى ساهمت في ازدهار مدينة بغداد كعائلة الدامرجي مؤسس أول عمارة في شارع الرشيد، وهي التي ذاع صيتها في كل مدن العراق بسبب طوابقها الستة، حتى قال نعمان بأنه ليس بمقدورك أن ترفع رأسك لترى قمتها، من دون أن يقع عقالك من رأسك.. أدرك نعمان أيضاً زمان التلفون والراديو والتلفزيون الذي يقضي السهرة معه... بجانب التلفزيون توجد لوحات عليها دوائر لفحص البصر تشبه حدوات الحصان مفتوحة من جانب واحد، وحول التلفزيون توجد الأرض المفروشة بالمنسوجات الثمينة والسقوف التي تتدلى منها المراوح والثريات التي تشبه ورود الحديقة.

رأيت أيضاً بائع القماش ابراهيم الشالجي، وقد بلغ من العمر عتياً، وأصبح محله في الشورجة، بحكم عوامل الزمن، منخفضاً عن مستوى الشارع الجديد، بحيث يراه كل عابر سبيل وهو حزين مستغرق في اليأس لا يشتري منه أحد. من أمامه يتدحرج تيار الهواء في ممر ضيق مفتوح على جانبيه.. وثمة أجسام فارغة تتراكض في الممر ظننتها قططاً تجري من بداية الدرب حتى نهايته.. غير أنها لم تكن سوى أكياس من النايلون يحملها الناس بدلاً من علاقات الخوص والجريد، ولو كان حفيده ابن الضابط قد بلغ عمر جده ابراهيم الشالجي لحل به الحزن أيضاً، وانتابته قتامة الجلوس بمتجر قديم راح زمانه وهرم مكانه، فلم يعد الناس يشترون منه القماش الخام كما كانوا يفعلون قبل انتشار محلات البدلات الجاهزة والمستوردة من جميع البلاد، غير أن الحفيد لم يكن حزيناً ولا مهموماً، بل يمر بالطائرة فوق البحر الأحمر والبحر الأبيض وصحراء سيناء، وعندما يصل القاهرة سيحضر حفل أم كلثوم وفرقة عبد الحليم نويرة، ويشاهد باليهات الجمال النائم وبحيرة البجع مع عرض لفرقة الحضرة للإنشاد الصوفي..

- وما هي هذه الطائرة يا أحمداني؟ وكيف تستطيع أن تراها؟

- في المرة القادمة سأحكي لك شيئاً عنها يا معلمي توبة.

- ماذا ترى أيضاً؟

- أرى المصور نعيم، الذي صورني ألبس دشداشة الختان فوق كرسي الجريد، أراه يجلس في السينما يشاهد فلماً عن رجلٍ جالسٍ في مكان عال يشعل سيجارته غير عابئ بالعالم الذي يحترق من تحته. لم تُظهر الكاميرا وجهه، لكنها أظهرت ولاعته الذهبية وساعته.. بعدها ظهر مسدسان موجهان لذلك الرجل، وانطلق صوت مدوٍّ لطلقتين، قادمتين من اتجاهين مختلفين، فسقط عقب سيكارته، وسار خطُ النارِ على الأرض حتى وصل إلى براميل البارود فانفجرت وبدأ الفلم..

- كيف ترى كل ذلك يا أحمداني.. منذ سنين وأنت تحيرني بما تراه وتسمعه.. كيف تدرك زمان السينما، وزمان طائرة الركاب العملاقة، وهل سيخلدها نعيم في كتابه المليء بالصور؟

- أما الطائرة فلن يدرك زمانها، وأما ما موجود في زمانك وزماني فقد خلّده نعيم في كتاب التصاوير الذي نحت له اسماً مبتكراً، ووضع فيه كل شيء رآه وأثر به، وكأنه يريد أن يحتفظ ببقاء الدنيا قبل أن تذهب.. وعندما تذهب سوف تبقى.. فنراها باستمرار. وإذا خطرت في بالنا سنجدها أمامنا وكأنها موجودة بالفعل، من القرقوز وصندوق الدنيا والفونوكراف والقصخون، وحتى ساعة القشلة المجاورة لمبنى السراي. لم يترك جسماً يسير فوق نهر دجلة إلا والتقط له الصور، فامتلأت جعبته بـ(جامات) سوداء لوجوه البلاّمين و أصحاب القوارب التي تحمل الطرفاء وقوداً للسفن البخارية. كما سيصورني معك وأنا أحمل كاسة اللبن الخاثر، ومن خلفي تظهر بيوت الطين والنورة واللبن ورماد الطمة مسّقفة بجذوع النخيل وحصران القصب.

وفعلاً جاء نعيم المصور إلى السماوة للمرة الثانية، حاملاً كاميرته وجاماته السوداء، وكان توبة شرار النار يتباهي بي متفاخراً بتفوق

تلميذه على باقي فتيان السماوة.. يقوم بارسالنا جميعاً إلى السوق، ويكون عليّ أن أعود قبل أن يتم عد أصابع يديه وقدميه عشر مرات.. درت بالأزقة والدرابين حتى وصلت السوق، وفي طريق العودة اعتدت الوصول على نحو أسرع من الجميع، لأني مدَرب بشكل جيد على الركض من قبل معلمي توبة شرار النار، فكيف إذا كان المصور نعيم يركض ورائي لكي يلحق بي؟

- بُف بُف بُف.

نفخ نعيم المصور كرته الجلدية السوداء، ثم التقط لي صورة وأنا أحمل كاسة اللبن الخاثر، ومن خلفي تظهر بيوت الطين والنورة واللبن ورماد الطمة مسقفة بجذوع النخيل وحصران القصب. هذا المكان سيمر عليه الزمان ويصبح اسمه (عكد دبعن)، ففي العام 1915 من القرن العشرين ستصل السماوة امرأة عجوز غريبة الأطوار، وتسكن هذا الدهليز، وبما أنها ذات لسان سليط وجرم بالغ الضخامة، فقد سيطرت على زمام أمور العكد، فلا يسلم الداخل والخارج والمار من لسانها، ووفقا لقانون العجوز دبعن فإن سكان العكد فقط مسموح لهم بالدخول، ولهذا كان الأهالي من باقي السماوة يخشون الدخول إليه إلا للضرورات القصوى التي تجبرهم على الدخول(*).!!..

احتفظ توبة شرار النار بالصورتين عنده.. صورتي الثانية مع كاسة اللبن الخاثر، والصورة الأولى التي ارتدي فيها دشداشة الختان، وأجلس فوق كرسي الجريد، وظل يطلب من نعيم أن يلتقط لي صورة ثالثة، إلا أنه غادرنا إلى بغداد وتأخر هناك.... كنت أسأل نفسي دائماً لماذا يريد توبة شرار النار أن يلتقط لي الصور؟ وكيف توصل إلى نعيم المصور وعرف بأنه يصور قصصاً من حياة الناس حول مجري نهر دجلة والفرات؟ فيصّور المداخن التي ترتفع من معامل السمنت، وتنفث أدخنتها في السماء.. وبعض النسوة اللواتي يملأن جرار الماء من نهر الفرات، وبعض الرجال الذين يعملون في معامل الطابوق الذي حل

محل الطين الحر والتبن في بناء البيوت من السليمانية والموصل شمالاً حتى السماوة والبصرة جنوباً. انتشرت تلك المداخن خارج المدن، ولم تعد سطوح البيوت تكسى بسعف النخيل وحصران القصب، وإنما تُعقد بالشيلمان المسلح وخلطة مكونة من الأسمنت والرمل والحصى.. كما أصبحت هياكل البيوت لا تتشكل كيفما اتفق، إنما يقوم بتصميم معمارها فنانون عظماء يطلق عليهم اسم المهندسين.

ومر عام والأعوام أرقام.

والأزمان في نكث وإبرام.

فأفرح بيومك واحفل به.

يمرك عيداً غداة أوهام.

أبحر نعيم المصور في الأرض والماء، وصوّر بادية السلمان وأشجار النخيل وبيوت الطين، وعندما قامت الحرب وبدأ الطلب يتزايد على البطاقات البريدية التي تلبّي طلبات الأوربيين في العراق من عسكريين وموظفين ومنقبين، راح نعيم يصور مواقع اثارية مثل طاق كسرى واسد بابل وبعض منائر الجوامع وأبراج الكنائس.. كذلك اصدرت مطبعة دار السلام التي امتلكها الأسطى علي أول تقويم سنوي، فكانت صور الأسواق والمآذن والشناشيل تزين هذا التقويم، أما صور الأكلاك المطلية بالقار، فوصلت إلى ديار بعيدة جداً، ونشرتها مجلة أمريكية اسمها الجغرافية الوطنية.

لا شيء يبقى في النهاية سوى الصور كما يقول نعيم، ولم يتوقف عن عمله هذا حتى عندما قامت الحرب، وجاءت معسكرات الاحتلال فيما بعد، وانتشرت في مدن الجنوب، ثم زحفت من البصرة حتى بغداد، واتخذت من الرميثة، التي تقع شمالي مدينة السماوة، معسكرا للتموين والمواصلات لتغذية القوات الزاحفة من البصرة والناصرية باتجاه ولاية بغداد. ولم يكن يعرف، كما فوجئت أنا، بأن صفحات هذا الكتاب المصوّر، ستنتشر صوره على صفحات الأثير

ومـواقـع الأصابع التي تعبث بالأزرار، مـن غـيـر أن يـذكـر نـاشـروهـا أنّ نعيم كـان قـد الـتـقـطـهـا في بدايات القرن.

لربما هـم أنـفـسـهـم لا يـعـرفـون ذلـك.

-17-

موسم الحصاد هو الذي كانت تعقد فيه معظم الزيجات، وتقدم فيه الأضاحي، أما موسم الكمأ فيبدأ بعد هزيم الرعد وسقوط الأمطار وظهور نبات الجريد، ذلك العشب الذي ينمو بعد عشرة أيام من تساقط الأمطار، وعندما تتفطر تربة إنباته، فهذا يدل على أن الكمأ سينفلق قريباً.. بادية السماوة أرض يعشقها الكمأ، ولهذا فإن الداخل إليها نهاية الشتاء لا يسمع إلا حديث الكمأ، ولا يرى إلا أعداداً كبيرة منه في الأسواق والوكفات، بل تقوم له ساحات بيع وتجار يصدرونه إلى بلاد الشام، ويجنون من ذلك الربح الوفير، والمبالغ الطائلة.

لم يلحق المصور نعيم موسم تصوير الكمأ، لأنه لم يكن يستقر في مكان واحد لزمن طويل، فالعالم كبير وجميل ويحتار المصور كيف يحتويه بعيونه الثلاثة أملاً باصطياد بعض اللقطات المميزة للأزياء والأثواب وأغطية الرأس من العقال والجراوية وحتى السدارة والفينة التي كانت تستورد من عاصمة النمسا.. غير أنه أدرك موسم جنى التمور، عندما جاء في زيارته الثانية إلى السماوة، فاستطاع اللحاق بآخر ما تبقى من عثوق ثقيلة تتدلى في مزارع النخيل، كما صور بعض الكهوف التي تقع قرب بحيرة ملحية عميقة المياه تدعى بحيرة ساوة. ولا يعيش فيها شبوط ولا كطان ولا أي حياة. ثم غادرنا بعد فصل الخريف مباشرة، ولم ينتظر موسم استخراج ثمرات الكمأ في البادية. فلم تظهر صورة

واحدة عن جمع الكمأ في كتابه الذي يجمع بين الحكايات والصور والمعارف.

يبدأ توبة شرار النار ركضته بعد ظهور البرق، ويربطني إليه بحبل طويل وغليظ لكي لا أضيع، فننتهي إلى أماكن بعيدة لجمع الكمأ وبيعه قبل الجميع... الجيد منه يتفوق ويسود على السيّئ، أما (السحك) فيتركه توبة لنفسه، لكي يأكله تاركاً لي إدراك أفضل ما عنده من الطعام.. يقول الناس عن ثمرات الكمأ إنها لحم بدون عظام، بل هي ألذ وأطيب طعماً من كل طعام، وفيها قال المغني:

هي بنت البر والبر حاويها

منغنغة بالدهن وعظام ما فيها

أمي ريحانة كانت ترى ذلك الحبل المربوط بيننا يشبه وشيجة أبوة أو أخوة لا فكاك منها، ووجدت توبة شرار النار أحنّ علي من أقاربي، ولهذا سمحت لي بالذهاب معه إلى موسم جني الكمأ وموسم جمع فرائس الصقور. كان يأتي لي بالخضرة والفاكهة ما أشاء، ولم تكن السكّينة ضرورية لقص البطيخة أو الرقية، فكان يكفي معلمي توبة شرار النار رميها على الأرض، فتتكسر ونبدأ نأكل ما بداخلها... بعد أن زادت مهارتي في الركض، راح يأخذني معه لكي نتسابق مع الريل، فنغلبه بمسافة بدأت تكبر مع مرور الأيام حتى وصلنا إلى ما خلف الحدود للتسابق مع خط الحجاز الذي يصل إلى مكة فكان الناس يسمونه بالشمندفر.

لقد كنا ثمانية أطفال لوالدينا، ضاع أحدهم في العيد الكبير، ومات خمسة رضع منهم بين الاختناق بحبل السرة، أو السخونة، أو الحصبة التي ما نفعت معها عطاريات الجدة زيتونة، ولا كساء برداء أحمر طافت به درابين السماوة. ولم تكن أمي تعرف تواريخ ميلاد أولادها، ولا يوجد من أحد يجيد القراءة والكتابة في البيت.. فقط تقول إن الأحمداني ولد في زمن السلطان عبد الحميد الثاني، وعندما بدأ يجمع التبرعات لإنشاء خط السكة الحديد الحجازي في ربيع سنة 1900ميلادية، كان

عمري أربع سنوات تقريباً، وقد دشن تلك الحملة بنفسه بأن تبرع من جيبه الخاص بمبلغ ثلاثمئة وعشرين ألف ليرة عثمانية، وتبرع شاه إيران بخمسين ألف ليرة عثمانية، فيما تبرع خديوي مصر بمواد عينية للبناء.. ولم تكفِ تلك المبالغ والتبرعات لإنشاء خط الحجاز، فأصدرت الدولة العثمانية طوابع يتم إلصاقها في معاملات الدولة يعود ريعها لمصلحة المشروع، كما فرضت ضريبة قيمتها خمسة قروش عن كل شخص ذكر، ودعا السلطان كافة المسلمين للمشاركة في تلك الحملة، سواءً ممن يعيشون في الأراضي العثمانية أو خارجها، فتبرع الباشاوات العثمانيون وموظفو الدولة والتجار والجنود وبقية الشعب، وبجانب ما تم جمعه من تبرعات، قامت الدولة باقتطاع عشرة بالمئة من مرتبات موظفي الدولة، كما وجمعت جلود الأضاحي وباعتها، وتم تحويل أثمانها إلى ميزانية الخط، فغطت جميع تلك الأموال حوالي ثلثي تكاليف مشروع الخط الحجازي الذي تم افتتاحه عام 1908.

يخلق الله من الشبه أربعين شخصاً كما تقول أمي، وعندما نسابق (الريل) بالأقدام الحافية كنت أجد هؤلاء الأشخاص المتشابهين يجلسون خلف شبابيك القطار وينظرون بانبهار إلينا أنا وتوبة شرار النار. يعتقدون أن لدينا وسائد كأخفاف الجمال تحت أقدامنا.. والحقيقة أن طرق تدريب توبة شرار النار لها مفعول سحري وعجيب. فهي تزيد من قوة الأقدام وقدرتها على تحمل الأعباء، وبالتالي فإن المسافة التي نقطعها دون أن نشعر بالتعب تزداد بشكل مطرد، وتصبح مطاولتنا أفضل مع مرور الوقت، كما أن نظافة الرمال وطراوتها لم تكن تلجئنا حتى إلى لبس الجوربين. وعندما كان الأهالي يلبسونها ويربطون أنفسهم بالحبال لإحضار محصول الكمأ دون أن يضيعوا، لم أكن أقبل أنا أن أضع جوروباً في قدمي، ولا أن أربط نفسي إلى شخص سوى توبة شرار النار. فلا أحد أسلمه لجامي إلا توبة صديقي الوحيد وقائد حياتي.. حملني على منكبيه وأنا صغير، وقادني بيديه إلى كل مكان في الدنيا وأنا كبير.

أصبحت قصتنا أنا وشرار النار حديث المجالس والدواوين على ضفتي نهر الفرات في جهتي الشامية والجزيرة وباقي أنحاء السماوة. سموه أهل القبائل بأسرع رجل في العالم، وقالوا إن والده عبد الرحيم قد تزوج انثى من الجن فولدت له توبة داخل كومة من تبن.. قالوا إنه لو ركض لا يعرف التوقف، وقالوا إن هذا الشخص الذي تجول مشياً أو ركضاً بين العراق والكويت وأرض الحجاز، قد وهبه الله معجزة أخرى بأن يكون له خليفة يبزه في الركض هو الاحمداني ابن شمس الدين ضامن البساتين.

-18-

عندما رآني جالساً على عتبة البيت للمرة الأولى في حياته توقف ولاعبني، ثم أعطاني كرة مصنوعة من الجلد أخرجها من جيب دشداشته، ثم نفخها بفمه.. تهللت أساريري، فسألني جاسم الملقب بين أهل السماوة بشرار النار هل تعرف اسمها؟ مددت يدي إليها مشدوهاً.. ألا أن جاسم سحب يده مع الكرة.. مددت يدي أكثر من مرة، ولم تصل إلى أي مكان، لأن جاسم كان يسحب يده مسافةً أبعد.. قال لي:

- طوبة.. اسمها طوبة.

لم يكن الأحمداني قد نطق بكلمة واحدة مفهومة قبل ذلك اليوم، وكانت قد جاءت له الجدة زيتونة، المختصة بعلاج كل الأمراض على اختلاف الأعراض والأسباب، بورق السدر لعلاج تأخر النطق.. وضعت ورق السدر في إناء به ماء وغطته بغطاء محكم، وراحت تنزع الغطاء من فوق الإناء كلما يغلي، وتأخذ قطرات السائل المتعرق على جدار الغطاء، ثم تضعها في برداغ صغير، وظلت تكرر وتقطر، حتى امتلأ القدح من سائل بخار ورق السدر، فشربه الأحمداني مرة صباحاً على الريق وأخرى قبل النوم لمدة يومين.. ولم تلاحظ ريحانة أي فرق أو تحسن في نطق ابنها، وفقط عندما وجد أحمداني الكرة المنفوخة، والتي ستكون بعيدة المنال، إن لم ينطق اسمها، انفكت عقدة خرسه، وقال لجاسم شرار النار عندما حثه على الكلام، والكرة في يده اليمين:

- هيا قل يا أحمداني.. اسمها طوبة.

- توبة.

- احسنت. هي لك إذن.

منذ ذلك اليوم أصبح الأحمداني يسمي جاسم شرار النار توبة، وشاع هذا الاسم في البادية، بل اتخذه شرار النار لنفسه اسماً بدلاً من اسمه الأولاني، ومهما يكن توبة مشغولاً بأعمال الرعي أو خدمة المضايف، فلا بد أن يقتطع وقتاً للمجيء واللعب مع الأحمداني.. ومرت الأيام وأصبحا يجريان مع السنوات.. ويتسابقان في الوديان ومع الرعيان.. وذات يوم ذهب الأحمداني مع شرار النار إلى أنحاء البادية عند أعمامه من قبيلة الجريان.. وهناك كان يطارد الماشية والجمال ويستبق حتى الثعالب والكلاب..

سأل شرار النار أمي ريحانة أن تسمح له بذلك مرة أخرى بعد أن أصبحت خطواتي تشبخ الأرضْ شبخاً، فوافقتْ على أكثر من ذلك، وسمحتْ لتوبة شرار النار بأخذي معه إلى البصية على الحدود مع الحجاز في الجنوب الغربي من بادية السماوة. ولا يوجد طريق مأهول يؤدي لتلك القرية، والوصول إليها يستوجب مرافقة دليل أو بوصلة، غير أن توبة يعرف الطرق كلها، وكان مرتبطاً بصداقات وثيقة مع شرطة الحدود الذين يعتاشون على الأرزاق الجافة فقط لصعوبة وصول اللحوم أو الخضراوات لهم، وأحسن ما كان يحمله لهم توبة هو الكمأ أو البطاطا والرمان والتمر واللبن مقابل التغاضي عن عبوره المتكرر إلى الحجاز لتهريب بعض الأغنام إلى هناك، أو العبور في طلب بعض زجاجات الطيب. كان العبور سيكون سهلاً لولا أن حدثت المعارك بين العثمانيين والثوار العرب للسيطرة على الحامية التركية بمكة، مما جعل رجال الجندرمة في تجوال دائم بتلك المناطق..

قرب المخفر توجد قرية صغيرة جداً من بيوت الشعر للبدو الرحل وأغلب أشهر العام تكون خالية من ساكنيها لخروج أصحابها إلى البر

لرعي ماشيتهم وإبلهم، وعندما كان توبة يصل إليهم يطلبون منه أن يأتي لهم من خارج الحدود ببعض قوارير العطر وحناء الشيب يبيعوه ويستعملوه ويتاجرون به. سألني إن كنت مستعداً للعبور معه، فلم أتحرك من مكاني، وتوجست خيفة من الابتعاد كثيراً أو التنقل بين الأراضي التي تكثر فيها الأفاعي والعقارب والسحالي، وهنا قال لي توبة شرار النار: انتظرني ثلاثاً إذن عند صديقي الإعرابي ذي اللحية الحمراء حتى أعود، كنت لا أعرف غير توبة أتعلق بأذياله، فرفضت التخلف عن رحلته، ووافقت على ذلك العبور، وسمعت توبة يعد للمرة الأولى الأرقام من الواحد للثلاثة قبل أن ننطلق، ويقول لي أول ما تناوشنا الطريق:

- عفية بالاحمداني، عفية بالسبع.

منزلي سيظل نفسه هو الطريق لا يتغير.. وفيه دفنت سر حياتي، كطائر محبوس في قفص.. يتنفس الهواء ويرى العالم دون أن يعلم بأنه سجين حتى يُطلق سراحه.. إلا أن الطريق الذي أطلق سراحي باغتني بالغدر أيضاً، فما حدث بعد ذلك قد حدث، وهو يحدث للكثير من المسافرين عندما يكون الجو ملبداً بالغيوم فتختفي النجوم من السماء!! تُهنا وضعنا واختفت علامات الطريق؟؟ واضطربت بوصلة توبة شرار النار، وأصبحنا نمشي يميناً ويساراً، ولا نصل لأي مكان فيه بشر؟ للمرة الأولى تختلط الاتجاهات على توبة، فنصبح في مكان لا نجد فيه حتى حمامة أو أفعى أو خيط عنكبوت.. ومضى يومان ولم يبق من الزاد والماء شيئاً، ولم نعرف ماذا نفعل.. وتعجب توبة من صمتي على الجوع والعطش، ثم تركني تحت شجرة ظليلة لأنه اكتشف أن ابهامي قد تورم مرة أخرى، ولم أعد قادراً على المسير، فمضى يبحث عن خيمة أو بيت شعر، على أن يعود قبل غروب الشمس.

بعد أن طبختني الشمس بقيظها، دفنت نفسي تحت أوراق الشجرة المتساقطة على الأرض لكي أتبرد أو أنام، ولم أنم لأني رحت أراقب العنكبوت يتدلى من غصن الشجرة.. كان يهبط بخفة من الأعلى

للأسفل، ثم يتوقف قليلاً في الفراغ.. كأنه يغير رأيه بلا سبب، فيقرر الصعود مرة أخرى متعلقاً بالخيط الذي ظل يطول ويقصر حتى غابت الشمس. أعلم أن العناكب تجوب الصحراء من أجل صيد الحشرات، غير أني لا أعلم بأنها تنسج شبكاتها بسرعة شديدة فوق أي زاوية تعترض طريقها، وإذا ما أزحناها ستعيد بناء بيتاً آخر. هذه هي عيشة العنكبوت.. إنها تنسج بيتها أينما تشاء، و تعيش أينما تشاء، والجدة زيتونة كانت تنهانا عن قتلها. فتأتي إلينا زاحفة من كل مكان، وقد تعلق بملابسنا فتصيب آسيا بالهلع والجنون، ولا أشعر أنا بالخوف منها.

مرت قافلة من الصيادين، فتوقفوا وسألوني من أنا؟ ومن أي مكان جئت؟ وما الذي أتى بي إلى هنا؟.. فعلاً ما الذي أتى بي إلى هنا.. وكيف وافقت أمي على هذه الرحلة البعيدة، ولماذا تأخر توبة عن الرجوع؟ بقيت صامتاً مخلوع القلب لا أعرف بماذا أجيب، وذهب الوقت وأنا منزوٍ تحت الشجرة لا أريد أن أتكلم مع أحد.. أو أسمع أحداً.. تقول أمي بأني ورثت قلة الكلام من أبي شمس الدين الذي مات بالهيضة فلم أره. أبي اشتعل جوفه بالنار، ثم ألزمته الحمى الفراش، فراح يتقيأ كل شيء يشربه، ولم تفده أعشاب الجدة زيتونة في شيء، وسُجلت حالته من قبل موظف الخستخانة كأول حالة من حالات مرض أبو زوعة في المنطقة كلها، وانطلقت أول حملة من الباب العالي لاتخاذ التدابير اللازمة في الإعلان عن هذا المرض، وجرد الحالات المصابة به، وإنقاذ الناس منه. وهو المرض الذي تصورته وتخيلته قد انتشر مرة أخرى عام 1917، فتوفي بسببه أيضاً الجنرال ستانلي مود قائد القوات البريطانية بعد سبعة أشهر فقط من احتلال بغداد.

أخيراً تكلمتُ وقلت لهم إنني تهت مع صاحبي على الحدود، سألوني ومن هو صاحبك؟ قلت لهم إنه شرار النار؟

- هل أنت ابنه؟

- كلا أنا تلميذه.

نظروا لبعضهم البعض نظرات غريبة ظننتهم يقصدون بها الاستغراب من اسم معلمي، ثم أكرموني فأعطوني الطعام والماء وطلبوا مني أن أرافقهم.. قالوا لي كيف تركك صاحبك لوحدك هنا؟ هذا المكان غير آمن، وقد تأكلك الذئاب.. فهيا تعال معنا.. خفت منهم.. وتوجست من نظراتهم، فأحدهم كان طيب الهيأة، والآخران تتدلى ضفائرهما فوق أكتافهما وينظران لي بطريقة غريبة.. لا أقوى على رفع عيوني والنظر إليهما. أنا لا يمكنني النظر في الوجوه طويلاً على أية حال، ولم أبتعد عن توبة شرار النار قبل هذا. فكيف لا أخاف وأنا وحدي مع رجال غرباء؟

رفضتُ، وقلت لهم بأني أريد انتظاره هنا.. فقالوا ننتظر معك.. أو تأتي معنا.. أثناء الانتظار تحدثوا عن حبهم للصيد وشغفهم ببادية السماوة التي لا يعرفون الطريق إليها جيداً.. فلما عرفوا بأني من السماوة.. طلبوا مني أن أكون دليلهم، وحملوني معهم على الحصان، ووجدت نفسي غير قادر على مقاومتهم بسبب التعب وتورم ابهامي.. تعجبت أنا أيضاً من استسلامي لهم بهذه السهولة.. فلم أصرخ أو أنادي باسم توبة.. لم أقل لهم كلمة واحدة، بل قلت لنفسي صبراً يا أحمداني.. فصبرت.

رأيت أمي ريحانة تحملني إلى المهد، ثم تغطيه ببرقع خفيف من التول. كان أبيض اللون عند ولادة أخي عذاب، ثم تحول لونه من الأبيض إلى الأسمر الداكن، وامتلأ ببعض الثقوب التي تستطيع البعوضات النفاذ منها. وكذلك يمكن لضوء الشمس أن يخترق تلك الثقوب من خلف شجرة القلم طوز التي ملأت باحة البيت. ياما نظرت من هناك لأرى أمي تخيط الدمى وتحشوها بالقطن، وعندما تتسخ وتتمزق ترميها إلى نار التنور الذي يتخذ له مكاناً في زاوية السطح.. كنت ألعب في فراغ السطح الأبيض من الصباح حتى الغروب دونما تعب، ولم أكن أعرف أن السطح صغير جداً، ولا أن السلم مائل جداً، إلا بعد أن كبرت.. وعندما يستمر الزمن في تقدمه إلى أمام، فإن الكثير من الأماكن يتبدل شكلها وتصبح أصغر حجماً.. حتى أعجوبة البيت وهي المرآة التي تضعها أمي

على منضدة التبرج، أصبحت صغيرة وداكنة اللون قياساً إلى المرآة التي رأيت فيها نفسي في بيت عمتي غزال.. كانت الأشياء تنكمش باستمرار، ووجهي ينكمش باستمرار. فأقول لنفسي صبراً يا أحمداني.. وأصبر.

لما وصلنا مضارب البدو على الجهة الأخرى من الحدود، رأيت الشمس أشرقت من خلفنا، فعرفت بأننا نسير باتجاه الغرب، وإن هؤلاء الثلاثة ليسوا من صيادي الصقور الذين يريدون الذهاب للسماوة.... وإنما هم يسيرون لمكان مجهول، ويجعلونني أتوه للمرة الثانية بعد المرة الأولى التي عبرت فيها الحدود مع توبة. من هم إذن وماذا يريدون مني؟ هل هم مجرد مسافرين عابرين قد ضلوا الطريق؟ أو لعلهم يتجولون للبحث عن طريق آمن للرجوع؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هذا الخوف الغليظ الذي طبع قلبي، وخيم حولي طوال الطريق، وحتى قبل ان أعرف بأنهم قد غيروا وجهتهم من الشمال الشرقي إلى الغرب.

سألوني بلهجة غريبة لم أسمعها بين أهلي:

- هل كنت وصاحبك ذاهبان للحج خيو؟

- كلا؟

- ماذا كنتما تفعلان هنا، ولماذا تعبران الحدود في هذه الوقت من السنة.

لم أرد عليهم. ولن أرد عليهم بعد ذلك.. قالوا لي أنهم من التجار الذين غيروا طريقهم من الحجاز إلى العقبة.. وهم بحاجة للذهاب إلى هناك، قبل العودة للسماوة؟ فلماذا كذبوا إذن في البداية، وقالوا بأنهم من صيادي الصقور؟ في الليل تظاهرت بالنوم فسمعت أحدهم، واسمه هلال، يتحدث عن رجل من التجار يأخذ الصبيان إلى مصر من أجل إخصائهم، ثم بيعهم للعمل داخل قصور السلاطين في الباب العالي، أو للخدمة في حرملك التجّار ورجال الدولة الأثرياء..... دون أن أفهم تماماً عن ماذا يتحدثون، سرى في جسمي تيار من الرعب. و فكرت بأن أن الحمى إن زايلتني، فسأهرب منهم حتى وإن كلفني ذلك حياتي.

إذا كان توبة قد عاد ولم يجدني فلابد أن يكون في مكان قريب.. وسأنتظر نومهم حتى أهرب.. لم أكن أعرف ماذا يقصدون بكلامهم عن هذا الخصاء؟ ألا أني غفوت وحلمت بممرات البستان مرة أخرى غارقة بالمياه الطافية من أحدى السواقي التي امتلأت بالماء إلى آخرها. بدا أن البستاني قد انشغل عن بستانه، وليس هناك من يغلق الصنبور حتى لا يغرق البستان إلى حين انتباه البستاني. مع اقتراب الفجر سمعت نباح كلاب بعيد مما يعني بأن هناك ارض قريبة آهلة بالإعراب.. نهضت وركضت قبل أن يفيقوا.. الركض هو أكثر ما أجيده في هذه الدنيا.. فكنت أركض ثم أتعثر لأن ابهامي المتورم كان يخفف من سرعتي، ونباح الكلاب اختفى فجأة، فاكتشفت بأني قد سقطت في شبكة منصوبة أحاطتني ومنعتني عن الحركة.. حملوني وأنا داخلها.. وأصبحوا يدفعون لي الطعام والشراب من فتحاتها.. أدركوا بأن عليهم منعي من الهروب، ثم تكتيفي وحبسي بهذه الطريقة.. لعلهم خمنوا بأني لا بد أن أكون عداءً للمسافات الطويلة مثل معلمي شرار النار الذي ضرب في الأرض حتى طبقت شهرته الأفاق.. سرنا مسافة ليلتين وأنا محمول على الحصان داخل شبكة تمنعني من الحركة، وفجر اليوم الثالث انشق رداء الليل عن رائحة سمك وهواء محمل بالرطوبة والأملاح. قالوا:

- وصلنا خليج العقبة..

-19-

الشاب أسعد كان واحداً من المحشورين في مؤخرة الباخرة، وكان من صناع السفن، وهو من أخبرني ماذا يعني الخصاء، فكنت أسمع في داخلي رعباً كالعواء دون أن أفهم تماماً ما سمعت.. كان هلال ذو الظفائر الطويلة قد حل وثاقي، وتركني حراً على ظهر المركب الذي كان أغلب ركابه من الحجاج.. جاء شاب قدم نفسه باسم أسعد، فوجدني مقرفصاً منكمشاً على نفسي.. فقال لي من أنت:

- أنا أزادي.

- هل أنت فارسي؟

- .....

- ألا تجيب؟

كان هلال قد ذهب يقضي حاجته، وأوصاني بأن أحمل هذا الاسم الجديد.. ولما تركني لوحدي وقفت، وحاولت تسلق سور المركب لكي أقفز منه، ألا أني قلت لنفسي صبراً، فصبرت وجلست منكمشاً على نفسي... تقدم مني أسعد، وجلس بقربي وروى لي قصته.. قال لي بأنه يريد أن يكون من الأغوات الذين يخدمون في الحرم المكي.. وإنه اضطر إلى تزييف تاريخ ميلاده ليظفر بفرصة الخروج والسفر لأداء الحج، إذ كان في بلده الحبشة لا يُسمح بالذهاب إلى الحجاز للعمرة أو الحج إلا للأعمار الكبيرة فقط. قال لي بأنه قد أبحر من ميناء عصب الحبشي، عبر خليج عدن، ووصل إلى اليمن بواسطة قارب بدائي صنعه

بيده.. في اليمن مكث قليلاً لاكتساب علوم الدين واللغة العربية بعد أن كان أعجمياً فيها تماماً، ثم سافر براً إلى مكة مع مجموعة من اليمنيين والأحباش، واخترق سواحل وسهول اليمن، من خليج عدن حتى الحديدة، وفي ذي الحجة قصد المسجد الحرام وصلى فيه وأدى مناسك الحج، ومكث في مكة المكرمة خمسة أشهر بانتظار أن يمنح مرتبة من مراتب الأغوات. قال بأنه كان يعمل في خدمة المسجد النبوي 14 من الآغوات، جميعهم يكبرونه سناً، ومن بينهم من بلغ الـمئة عام، فحضر إلى شيخهم، وعرض عليه رغبته في خدمة المسجد النبوي، وكات أول ما فعله أن قام بتفتيش أجزاء من جسده ليتأكد أنه مخصي، وعاين ذلك بشهادة اثنين ممن يثق بهم من (الأغوات)، ثم صار يوجه إليه أسئلة عدة يستوضح من خلالها سلامة عقيدته وملته، إلى أن بشره بالموافقة على التحاقه (آغا) يفرغ حياته لخدمة الحرم.

صمت أسعد قليلاً، ثم قال:

- إذا أنت أردت ذلك أيضاً، فعنواني في المدينة هو المسجد النبوي.

لم يفصح لي الحاج أسعد لماذا هو موجود في هذه الرحلة، وقد رفع المظلة لي عندما سقط المطر، وكانت السفينة تتقدم بنا رغم الأجواء السيئة. والحاج أسعد يلازمني أغلب الوقت:

- ولكن أين ذهب صاحبك؟ كيف تركك وذهب؟

- لقد تهنا في الطريق، فذهب ليبحث عن الماء والزاد، وأيضاً عن دواء لإبهامي.

- هل يكون قد تركك عن عمد في البرية؟

فكرت بكل الاحتمالات إلا هذا الاحتمال.. لا يمكن أن يكون شرار النار قد فعل هذا.. ابهامي هو السبب فيما حدث لي.. كان قد خف ألمه، لأني لم أعد أفكر فيه.. وإنما بهذا الحشر من الناس الذين يتربعون من حولي.. صبيان لا يبدو عليهم الشوق لأي شيء.. ولا يهمهم أي شيء

لأنهم لا يعرفون مصيرهم الذي هو أسوء حتى الموت نفسه. لا يمكنني أن أرتضي مصيراً مثلهم بعد أن قال لي الأغا أسعد بأن هؤلاء الصبيان تأتي بهم قوافل الجلابة من مختلف البقاع، ثم تتم عملية الخصاء عادة في فصل الخريف لاعتبارات صحية، ويقوم بها جماعة من الأقباط، وسيحدث هذا في جرجا أو أسيوط.. فماذا أفعل؟ عواء الرعب اخترقني مرة أخرى، وقد بدأت أفهم ماذا سيحدث لي بالضبط، فلماذا لا استطيع رد مصيري هذا؟ لماذا لا أقول كلمتي؟. فقط قلت لنفسي، كيف يرضى الله بذلك؟ فاستمر أسعد في حديثه، وكأنه يرد على سؤالي:

- الخصاء حرام، وهناك فتوى شرعية تحرّم الخصي، ولكنها تبيح استخدام المخصيين إذا قام غير المسلمين بخصيهم، أي أن شراء الخصي من العبيد وبيعهم حلال.. ويمكن إباحة الخصي هدية كهدية الثوب او العطر والدابة والفاكهة. أما خدام المسجد الشريف وسدنته من الأحابيش وسواهم فأمرهم مختلف، ولهم المرتبات بديار مصر والشام، ويؤتى إليهم بها في كل سنة، وكان يشترط للالتحاق بسلك الآغوات ليس أن يكون مخصياً فقط، وأنما أن يقبل تطبيق نظام الآغوات عليه، وأن يرابط في الحرم مدة سبع سنوات متواصلة بناءً على جدول المناوبة لـلأغوات، وأن يؤدي واجبه على أكمل وجه، وأن يطيع أوامر رؤسائه، وأن يتمتع بصحة جيدة. أما البحث عن الذين تتوافر فيهم الشروط المذكورة فيتم من طريق الأغوات الذين يسافرون لهذه المهمة. وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام، وهو في هيئة الأمراء الكبار. أما باقي الآغوات فيقومون بعدة وظائف في الحرمين الشريفين، منها غسل المطاف وتنظيف الحرمين من فضلات الحمام وإنارة القناديل وغير ذلك من أعمال الخدمة، كفرش السجاد وتقديم ماء زمزم، وفصل النساء عن الرجال أثناء الطواف. أما في المسجد النبوي الشريف فيقومون بتنظيف الحجرة النبوية، وفتحها للضيوف عند الحاجة، واستقبال ضيوف الدولة عند باب السلام ومرافقتهم وملازمتهم إلى أن يغادروا المسجد النبوي الشريف.

- ظننت الأغا هو الباشا؟

- كلمة (آغا) تطلق على الشيخ أو السيد وصاحب الأرض، والكثير ممن خدم في الوظائف العسكرية يلقبون بكلمة آغا أيضاً. ولكن في مكة المكرمة والمدينة المنورة تطلق على من يخدم في الحرمين الشريفين. آغوات الحرم المكي لهم منزلة عظيمة أيضاً، ولا يحق لأحد أن يعترض عليهم أو يتدخل في شؤونهم، وقد بلغ بعضهم مكانة كبرى في السلطة كتولي الصدارة العظمى والخزانة والأوقاف وإدارة بعض الأماكن المقدسة.

-20-

وفي صبيحة يوم النحر وهو يوم العيد الأكبر يكون عموم الحجاج قد وصلوا إلى مِنى.. وبمجرد وصول الحجاج إلى منى يقصدون من فورهم جمرة العقبة فيرمونها وينحرون ويحلقون أو يقصّرون ثم يلبسون ملابسهم، وعندها يحل لهم كل شيء ماعدا النساء والطيب... كان المحمل المصري يخيم في شمال المصطبة التي فيها مخيم الشريف (حسين)، والمحمل الشامي إلى جوار مسجد الخيف، وهو مسجد كبير ذو فضاء واسع مربع يقع في سفح منى الجنوبي، بالقرب من الجمرة الصغرى، وفي منى بدأت مراسم قراءة الفرمان العثماني، وهذا الفرمان كان يُرسل كل عام من اسطنبول إلى مكة يوصي فيه السلطان العثماني شريف مكة وحاكمها بالحجيج، ويرسل معه خِلعة سنية، وصرة من المال، وعادة ما تجتمع الحامية التركية وأشراف مكة وفق مراسيم معينة، وفي هذا السنة اجتمع معهم الخديوي عباس حلمي الثاني الذي خرج مع حملته للحج، وأخذ في تلاوة الفرمان الذي كان يمسك بطرفيه اثنان من التشريفاتية، فتلاه بالتركية..

كنت قد وصلت العقبة مع التجار الثلاثة.. أردت الهروب منهم، فسقطت في حفرة صيد مغطاة بالسعف.. ولما اكتشفوا قدرتي على الركض كتفوني.. وأخذوني معهم إلى خليج العقبة.. في الباخرة التقيت بأسعد الخصي الذي كافح من أجل الالتحاق بالاغوات. وسمعت

الركب يغني (على بلد الحبيب رايحين).. فعرفت بأنهم موكب المحمل الشامي لحج بيت الله الحرام....كان صوت الغناء يصلنا مع نزولنا من الباخرة التي ازدحمت بالحجاج الذاهبين في طريق البحر.. أما أنا فقد كنت مساقاً مع الصبيان إلى مصير أجهله. رأينا رجلاً قادماً إلينا.. ليس كبيراً في السن وكان مليح الوجه اشقر البشرة.. نظر إليه هلال بتعجب، فقال له الرجل الأشقر:

- هل هذا ابنك؟

- كلا.

- هل تبيعه.

- هو ليس عبداً للبيع.

- حتى بهذه الصرة من الليرات الرشادية؟

كان الرجل الأشقر على شبه كبير بتوبة شرار النار.. وتوهمت بأني رأيت توبة في صورة هذا الرجل الذي استقبلنا في الميناء يبحث عن عبد يخدم في حملة الخديوي عباس للحج.. قال للتاجرين ذوي الجدائل ثابت وهلال بأنه سيدفع ثلاثة اضعاف السعر لأن الحاجة ماسة.. لا أدري أين أصبح ثالثهما طيب الهيأة، فقد اختفى من الباخرة، وأغلب الظن أنه لم يصعدها أساساً وسلم أمري لرفيقيه ثابت وهلال.. تشاوروا فيما بينهما.. ثم انتهى ترددهما عندما اخرج لهم الرجل الأشقر تلك الصرة المليئة بالليرات الذهبية.. فوجدا، كما يبدو، أن هذه الصفقة افضل من صفقة الخصاء عند الرجل القبطي التي رجحها الحاج أسعد.. صاح المنادي بلهجة مصرية بأن اليوم هو التاسع والعشرين من ذي القعدة للعام الهجري 1327، والموافق الحادي عشر من ديسمبر 1909 وفقاً للتقويم الميلادي، وبأن الركب سينطلق بالصبيان من السويس للقاهرة... عندها أخذني الرجل الأشقر منهم وأصعدني يخت الخديوي عباس.. وكان رجلاً ودوداً نظيفاً ارتحت له كثيراً، وقدم نفسه قائلاً بأن اسمه جميل، وكان من شدة بياضه يبدو كالملاك، ثم تحول فعلاً إلى

رجل ملائكي عندما لبس ملابس الإحرام البيضاء ونحن في البحر.. أطعمني وأكرمني، وقضينا ثلاثة ايام على السفينة يعلمني إرسال الرسائل بطريقة غريبة.. كان يقوم بإطلاق حمامات الزاجل بعد تثبيت قصاصة على أرجلها مكتوب عليها كلمات لم أكن أفهمها، ولكني كنت أجيد الامساك بالحمامة والعناية بها..

الحمامة ارتفعت بسرعة في الهواء، ثم تحولت إلى نقطة بعيدة في السماء حتى غابت عن الابصار. والحاج جميل يقول لي إذا كنا محظوظين فستعود إلينا بسرعة، فهل تعود إلينا حقاً.. وكيف تعود إلينا؟؟ سألته، فقال بأنها قد دُربت لفترة طويلة على ذلك، وبأن الحمَام الزاجل يمتلك المقدرة على رَسْم خرائط تُمكِّنه من تحديد اتّجاهه، وتَعتمِد هذه الخرائط على الكثير من الميزات التي يمتلكها هذا الطائر منها،حاسّة الشمّ، ومقدرته على الكَشْف عن أبسط التغيُّرات في الطقسّ، بالإضافة إلى استخدامه موقع الشمس لتحديد طريقه، كما أنّه يسمع أصوات مُنخفضة لا يتمكّن البشر من سماعها، وأنّ حاسة السمع الفريدة هذه تُفيده في تحديد اتّجاهه.

- ألا تضيع الحمامة في الطريق؟

- يحدث هذا عندما تفقد قدرتها على إيجاد طريقها الصحيح، فقد تأتيها الأصوات مُنخفضة جداً بسبب التضاريس، والأحوال الجوّية أيضاً قد تؤثر على مُستويات الضجيج، وهو ما يُربِك الطيور أحياناَ، ويسبب ضياعها.

لم يقل الحاج جميل بأن الطير الجارح يمكن أن يهاجمها ويجعلها تعود مبقورة البطن مفككة الأوصال.. ولم أتوقع أن أرى مثل هذا المنظر في حياتي.. فقد هبطت إلينا على السفينة وعينها اليمنى مغمضة، وقلبها ظاهر للعيان من خلف ريشها المدمى، وجلدها المنزوع عن أحشائها.. أراد الحاج جميل أن يرميها إلى البحر.. كان يريد أن يفعل ذلك رحمة بها.. فاقتربت منها، وطلبت من الحاج جميل أن يتركها لي.

كانت مكومة على بعضها بحيث لا أعرف كيف أحملها.. قد أؤذيها إذا ما حملتها من بطنها المجروحة، فطلبت من الحاج جميل حبلاً ناعماً أصنع منه أرجوحة صغيرة أضعها عليه، ثم أعلقها في قفص صغير لا تحاول فيه الحركة أو الطيران.. جئتها بالماء والسكر لكي تشربه.. ثم مسحت جروحها المفتوحة بالماء المخفف بالخل، ووضعت ساقها المكسورة في جبيرة من عيدان خشبية لففتها بقماش سميك على الساق.. بقيت طوال الليل أراقبها حتى هدأت ونامت وأغمضت عينيها الاثنتين. وكانت تفز بين حين وآخر من ألم جروحها.. فأمسح على ظهرها، وأرش قليلاً من ماء الورد على ريشها.. أو أعاود هز الأرجوحة برفق لكي تسكن إلى النوم.. في الصباح انتبهت إلى أنها عندما تغمض عينها السليمة يكون ذلك شبيهاً بانغلاق عدسة الكاميرا التي كان يحملها نعيم المصور، فاستغربت من هذا الشبه الغريب بين عينها وآلة التصوير التي يحملها نعيم.. وعرفت كيف تستدل حمامة الزاجل على الأماكن التي نشأت فيها بحيث تعود إليها.. إنها ليست الأصوات والروائح فقط، ولكنها بمجرد أن تغمض عينيها تلتقط صورة للمكان الذي تمر به، بحيث تحفظه ويمكنها التعرف عليه عندما تمر به مرة ثانية في طريق عودتها.. بعد أيام بدأ الجلد يلتئم، وأخذت عينها المصابة تتعافى، ولكن رجلها استغرقت وقتاً أطول للشفاء. فبقيت تعرج حتى بعد أن تمكنت من الطيران.

أنا الآن فعلاً أجلس معها كلما عادت من الهواء.. أحبها واقدم لها الطعام.. الأصابع نحيلة متجعدة والأظافر سوداء.... عدد ريش الذيل اثنتا عشرة ريشة..... والجناح أطول قليلاً من الذيل الذي ينفتح على شكل قوس أثناء الطيران.. لم يتوقعني أستطيع تطبيب هذه الحمامة الجريحة التي أوشكت على الموت.. و لهذا عرض علي الحاج جميل بأنه يعلمني كيف أقوم بارسال الرسائل عن طريقها.. قال إن عمرها عامين، وقد ولدت في البرج من أنثى قوية كانت من الحمامات التي تحمل البريد. ولم يستغرق تدريبها وقتاً طويلاً..

- وكيف تدربونها؟

- تدريبها يكون عن طريق إبعادها عن برجها لمسافات قصيرة، فإذا استدلت عليه وعادت إليه، تكبر المسافات باطراد حتى تصل إلى مسافات شاسعة.

- هذا ماكان يفعله معلمي معي أثناء تدريبي على الركض.

- وقد كنا نعتمد كثيراً على حمام الزاجل لارسال البريد قبل انتشار البوسطة والتلغراف الذي بناه الوالي العثماني عثمان باشا في عصر السلطان عبد الحميد الثاني منذ عام 1882.. وهو لا يعمل بشكل جيد هذه الأيام... ولهذا احتجنا لاصطحاب الحمام الزاجل معنا احتياطاً لحدوث أمر طاريء.

كان رأس الحمامة محنياً على صدرها الملون باشعاع أخضر صدفي.. حلقت ثم هبطت إلى برجها في السفينة.. الجناحان مفرودان على سعتهما، ورقبتها منحنية للأسفل، وكأنها ترى وتستعرض كل ما يمر من تحتها من الصور.. كانت تدير عينيها في كل الاتجاهات، ثم تقترب مني، وتدور حولي، وكأنها تريد تقديم الشكر على ما فعلته لأجلها.. فكرت أن يكتب لي الحاج جميل شيئاً أرسله إلى أهلي في السماوة، فلما اخبرته بذلك قال لي بأن الحمامات مدربة فقط للوصول إلى مكة.. إنها تقرأ علامات الطريق أفضل منا، وعندما تصل الحرم المكي تحديداً، يأتي موظفو الشريف حسين ليستطلعوا الأخبار الجديدة، فنخبرهم بموعد وصولنا، فخدمة التلغراف عاطلة لديهم منذ أيام.. قال لي:

- التلغراف في هذه المدينة لا نظام فيه بالمرة، ونحن نستعمل الحمام الزاجل لعدم وصول غالب الإشارات التي تُرسل من وإلى أربابها، ولعل ذلك ناشئ من كثرة الأعمال زمن الحج. أما البوستة فشيء لا نظير له بالمرة في بوسطات العالم، فإن المكاتيب تحضر في موسم الحج من جدة إلى مكة على الجمال في عدة زكائب، فتُلقى في طرقة مكتب البوستة الضيقة، ويأتي المطوفون أو صبيانهم أو الحجاج أنفسهم

فيفرزونها ويأخذ كل ما يعثر عليه صدفة باسمه أو باسم معارفه، وعليه فأغلب الخطابات لا تصل إلى أربابها(*)

ما حدث بعد ذلك خالف كل توقعاتي.. أنا أكاد أفعل شيئاً أقول فيه كلمتي.. أكاد أن أقول شيئاً غير كلمات الزمان، فقد وضعت في قدم حمامتي قطعة من ثوبي القديم الذي بقيت ارتديه، ولم أخلعه منذ أن تركني شرار النار تحت شجرة العنكبوت، وحتى لحظة أن ارتديت الملابس التي أعطاني أياها الحاج جميل.. أمي هي التي خاطته لي.. ووضعت لي فيه خيطاً ذهبياً جميلاً يحيط بياقته، وينتهي مع نهاية فتحة الصدر التي تغلق بالأزرار. مزقت الجيب من الثوب لأنه هو الآخر كان محاطاً بخيط ذهبي.. وعقدته حول القدم المصابة للحمامة ثم أطلقتها لتحلق بعيداً جداً، عسى أن يكون شرار النار في الحجاز، أو في بلدة قريبة، فينتهي المطاف بالحمامة في مكان يوجد فيه شرار النار. وقد يكون هو نفسه المكان الذي افترقنا فيه.. من المؤكد أنه لا زال يذهب إليه ويبحث عني هناك.. وقد يسعفني الحظ، فتظهر له الحمامة نازلة من السماء وتحط على الأرض التي يمشي عليها.. لم أكن متيقناً تمام اليقين من حدوث ذلك، مع هذا طلبت من الحاج جميل أن يكتب على الجيب.. أنا الأحمداني قادم لجدة، وسأصل خلال يومين.. صحح لي الحاج جميل وقال:

- بل أوشكنا على الوصول إلى جدة.

من السويس كنا قد ركبنا يخت الخديوي «المحروسة» فوصلنا رابغ في تهامة موضع الإحرام للمصريين، فأحرموا ثم انطلقوا بالباخرة مرة أخرى إلى جدة، وفي الأول من ذي الحجة وصلنا إليها... ها هي جدة التي قال الحاج جميل بأنها وإن كانت يحكمها الأشراف العرب، ألا أنها تابعة للدولة العثمانية عبر حامية عسكرية في المدينة كان على رأسها قومندان.. في جدة حركة مستديمة لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً من الحجاج الذين إذا وصلوا إليها وجدوا على أبواب جمركها مطوفيهم أو وكلاءهم

في انتظارهم وهم يُنادون: يا حجاج المطوف فلان أو يا حجاج المطوف فلان، فيعرف الحاج اسم مطوّفه، فيُنادي عليه وهو في هذه الشدّة، فيُبادر إلى مساعدته ويأخذ منه ورقة جوازه ليُعلّم عليها من قلم الجوازات.(*)

بقينا في جدة يوماً واحداً للراحة والنظافة، ثم انطلقنا إلى مكة عن طريق الهجن والحمير و الأحصنة، وفي ليلة الثالث من ذي الحجة وصلنا مع الخديوي عباس حلمي الثاني الذي كان على صهوة جواده إلى مشارف مكة مع الركب المصري، وقد استقبله الشريف حسين وعلية القوم من أهل مكة وأكابر القوات العثمانية والمصرية، وبعد الاستقبال، دخل الخديوي عباس الحرم المكي الشريف، وطاف طواف القدوم، وسط احتفاء واستقبال كبيرين. كان اليوم يوم جمعة.. فلما صعد الخطيب المنبر صعد معه أحد الأغوات وجلس على الدرجة التي تلي قدميه، تهلل قلبي فرحاً وانتظرت انتهاء الخطبة.. كنت أواصل النظر إلى الأغا لكي لا يغيب عن عيني... كنت استرجع ما قاله بأن جلوسه هناك هو عادة قديمة للمحافظة على الخطيب أثناء انشغاله بإلقاء الخطبة حتى لا تتسرب إليه يد أثيمة.. و بأنه عقب الانتهاء منها سينعم الجناب العالي على الخطيب بخلعة سنية، ثم يصلي الخطيب بالناس تحت جدار الكعبة المكرمة.

عندما نزل الأغا، نهضت من فوري.. مشيت خلفه وناديته:

- أسعد أغا؟

كان الناس ينفضون من الصلاة بقرب جدار الكعبة.. وبدأت الحشود تدفعني إلى الخلف.. وأنا أكافح للتأكد من وجه الأغا الذي كان يجلس قبل قليل قريباً من موقع الخطيب.. استطعت العبور أخيراً.. كان علي فعل ذلك.. عرفت بأني سأفعل ذلك.. فصحت مرة أخرى:

- أسعد أغا؟

- من؟ الأحمداني

- كيف عرفت اسمي؟

- قد سمع الله حمدك مثلما سمعته أنا.. أبشر يا أحمداني أبشر.. هناك رجل يبحث عنك بين الحشود.. يقول وصله بريدك مع حمام الزاجل.. وعندما وصفك عرفت بأنك هو.

الدموع في عينيه غوشت الرؤيا، فشاهد الأحمداني أعداد الحجيج في عرفة أضعافاً مضاعفة، الوجوه تختلط وتتداخل مع بعضها البعض كلما اجهد في البكاء.. كان يمسح الدموع بثيابه لكي يرى جيداً.. ويحاول أن يمنع نفسه من البكاء دون أن يستطيع ذلك.. أراد فقط أن يرى جيداً.. من الأفضل له أن يرى جيداً وهو يصعد الجبل مهرولاً عسى أن يعثر على شرار النار.. البكاء الشديد يمنعه من الركض سريعاً، إلا أن قلبه مرتبط بالسماء في هذه اللحظة ارتباط الجنين بأمه.. فظل يبكي ويكّبر ويبحث بين الحجيج عن رفيقه ومعلمه توبة شرار النار، لكن الجميع منشغل عنه، ولم يتلفت إلى دموعه أحد.. دخل الحشد وخرج منه دون أن يعثر على شرار النار.

أذن المؤذن لصلاة العصر، فاصطف المصلون، ونزلت الدموع مرة أخرى أنهاراً من عيني الأحمداني، وتضرع لله بأن لا يضيع عن شرار النار مرة أخرى.. فهو يريد العودة إلى أمه.. ويريد أن يتحقق ذلك.... قف صل إذن أيها التائه، قالت له نفسه، فوقف يصلي تائهاً يبكي.. دموعه دخلت فمه، والتقت هناك بأنفاسه المتراكضة، فتحشرج صوته، وشرب حتى قلبه ماء الدموع، فتغرغر السؤال في فمه:

- يارب دلني على توبة.. يارب أين هو توبة.. أين معلمي توبة شرار النار؟ وكيف سأعثر عليه بين هذي الجموع؟

بعد أن انتهى من صلاة العصر رأى المحمل المصري يتحرك بحرسه إلى منحدر جبل الرحمة، ونهض خطيب عرفة، فصعد بناقته إلى صدر هذا الجبل، بينما الأحمداني يتدافع بين الناس يدعون ويلبون ويتضرعون إلى الله.. نظر إلى وجوههم واحداً واحداً، وانصرف عنهم واحداً

واحداً.. حتى إذا غابت شمس عرفة، تحركت باقي المحامل وسارت متأهبة للرحيل بين ضروب المدافع وأصوات الابتهالات، واختلاط الدعوات مع العبرات، كل حاج قبل ذلك كان قد حمّل حمولة واستعد للإفاضة. فأين توبة شرار النار.. لا يجد الأحمداني أثراً له.

عندما هبطتُ من جبل عرفة، التفتُ مرة أخرى إلى الخلف، فتبدى لي مسجد بلال على قمة جبل عرفة.. ثم عاودت التفاتي إلى أمام، فرأيت ظهر شخص يحمل عصا طويلة يتدلى منها فنطاسان للماء وتلاحقه الطيور.. طوال الطريق لم أكن أفكر سوى بالعودة للحجاز كونها المكان الذي سيجعلني قريباً للحدود من بادية السماوة.. كنت أفكر بالهروب من المحمل المصري، بالرغم من إحسان الشيخ جميل الذي اشتراني بالذهب وانقذني من الخصاء.. وكلما أحسن لي أشعر بصعوبة نيتي على الهرب.. فماذا أفعل يا رب؟ ألا يظن أنني اشتاق لأهلي وأمي ومعلمي توبة شرار النار.. كيف يُستوفى دينه علي وبأي أجر.. بل ماذا أفعل لكي أعثر على توبة أولاً بين هذه الحشود المتلاطمة؟

تذكرت الأغا أسعد وقلت أذهب إليه مرة أخرى لعله يساعدني في العثور على شرار النار.. اللوحات الإرشادية كانت تمر بي دون أن أفهمها، غير أن صوت الأذان هنا هو الذي يحدد الزمان، و مسالك البشر هي التي تصنع أسواق وعلامات المكان... أشعر بأني لا أستطيع التوقف أو التمتع بالهدوء ولو للحظة واحدة.. عبرت السوق وكانت التجارة على اشدها في محفل مزدحم أغلب بضاعته من العطريات والسبح والسجاجيد وأقمشة الحرير الهندية والشامية.. عرفت بأنه سوق الشامية الذي يقع في شمال الحرم، وله سقف من الخشب، وهذه السوق يضيق بالمارّين خصوصًا عند مرور الجمال بها. وفيها أيضاً كثير من سلال فصوص الفيروز والياقوت والعقيق الذي يبيعه حجاج اليمن في شوارع المدينة بأثمان رخيصة جداً. وكان الأغا أسعد قد توقف يقلب بعضها.

قبل أن أتوجه إلى أسعد أغا لكي أسأله عن توبة شرار النار، دفعني

أحد الراكضين وأسقطني أرضاً، وكاد جمل هائج أن يدوس علي.. وقبل أن يتسلط فوقي، نهضت بسرعة من سقطتي، لأجد نفسي قد أصبحت في الاتجاه الآخر الذي أتيت منه.. اختفى الأغا أسعد من أمامي، و رأيت من بعيد ذلك الرجل الذي كان يحمل على كتفيه فنطاسي الماء.. كان قد انهى جولته، وأقعى جالساً منكباً بحيث القى ما بين يديه الى الأرض.. والطيور تحوم حوله.. سمعت صوتاً يناديني، فهرعت إليه، وكان هو الأغا اسعد.. عثرت عليه مرة أخرى في سوق الشامية، فقال لي:

- حجاً مبروراً يا أحمداني.. هل عثرت على صاحبك؟ أم تنوي البقاء معنا؟

- لا زلت أبحث عنه. هل تذكر أين رأيته أول مرة؟

- هيا معي إلى المسجد لنصلي المغرب. وسآخذك إلى المنادي لكي ينادي عليه.

- ماذا لو لم أتمكن من العثور عليه.

- فلتبق هنا إذن أيها الزائر المسكين.. هنا ستنسى كل آلامك وستبقى في عهدة الله لا في عهدة أي أحد من البشر.. فلا تأس على ما فاتك يا ولدي.. فان الله لن يودعك أو يذرك حزيناً وهو بكل شيء محيط..

أعطاني عنقوداً من عِنب أسود يضرب إلى الحُمرة قال بأنه من مدينة الطائف.. وسار معي باتجاه المسجد، وعندما وصلنا إليه ارتفع اذان المغرب، فطارت الطيور التي أحاطت بالرجل الذي لم أر سوى ظهره، كنت عطشاناً فـ... فـ.. سمعته ينادي:

- يا طيور يا طيور السماء.. تعالي واشربي الماء.

- يا طيور يا طيور.....

عادت الطيور تطير وتحط حول ذلك الرجل الذي يجلس في الحرم.. صوته أوقع قلبي، فذهبت اليه وهو جالس بين القعود.. اقتربت منه أقول بصوت خافت»الدعاء يستجاب اذا كنت موقناً بالله، وأنا كنت قد ناديت

ربي في الصلاة، وقلت لنفسي أين أنت يا توبة. أين أنت يا توبة؟ هل ستتركني أضيع كما ضاع أخي هارون في العيد الكبير؟».

التفت إلي الرجل ملهوفاً حتى قبل أن يراني وأصاخ بسمعه، ثم قال:

- من؟ الاحمداني؟

من شدة البكاء لم استطع حتى أن أرد عليه وهو يقول:

- أمك كانت على حق يا احمداني.

شهقتُ الهواء كله دفعة واحدة وقد انحبس عني الكلام.. انزاح وزري الذي انقض ظهري..

- قالت اذهب لمكة وهات لي بالأحمداني فان مصابنا لن ينجلي إلا عندما ندعوا الله في بيت الله. وأنا قد داومت على تعظيم الدعاء، لأني كنت موقناً بأن دعواتي ستُجاب.. أرأيت الذي يرى الله في قلبه كيف يراه الله.

- توبة لا أصدق عيني.

- ولا أنا تعال يا ولدي.

أكرمني ربي.. احتضنني وهو يدك الارض.. وكانت دموعي تغسل وجهي وتجري كالجداول. الأغا أسعد ينظر لي ويستغفر ربه عن إثم فكر به، وذا هو يرى أمامه مثالاً للصاحب الطيب والأثر الباقي، بعد أن كان قد ظن احتمالاً بأن شرار النار هو الذي تركني عامداً في البادية.. رحمة السماء تنزلت علينا، ومعها كل سعادة الدنيا.. فكان الأغا أسعد يكبّر ثم يقول إن بعد العسر يسرا.. إن بعد العسر يسرا.. إن بعد العسر يسرا..

بقينا نصلي صلاة الشكر لربنا حتى مطلع الفجر.. كنت أفكر كيف لم أتعرف على شرار النار عندما رأيته من ظهره؟ لقد ازداد نحافة على نحافته، ولهذا لم اتعرف عليه.. شعرت بأنا لن نتفرق بعد ذلك ابداً... وحدث أن تدخل الأغا أسعد لكي يتحقق ذلك.. وبرحمة من الله ومرحمة من الخديوي صدق قلب أمي وحدسها.. فقبل الحاج جميل

توسط ألأغا أسعد، وأطلق سراحي.. فأما ابتلائي من غيابي عنها لعدة شهور فكان قد علمني معنى الصبر.. وأما نجاتي على يد الشيخ جميل وعثوري على معلمي توبة، فكان لكي أجرب معنى الفرح بعد الشدة. بقي فقط أن أكون مع أمي، فتقر عينها ويطمئن قلبها راضياً مرضياً.. وأشعر أنا بمعنى الرضا الذي يستطيع ان يملأ قلبي وكل البرية.

قبل أن نصل الحدود ابتاع لي توبة قارورة من عطر العود المكي، وقال احملها هدية لأمك عندما تعود.. كان توبة شرار النار قد رجع قبل شهر بالتمام والكمال ولم يجدني تحت شجرة العنكبوت، ولم يدر بأني كنت نائماً فوق حصان هلال منكمشاً على نفسي كقطة ملتف عليها ذيلها.. وطوال الطريق لم يطرأ في بالي بأني ذاهب للبحر مع تجار رقيق يريدون بيعي في مصر.. قال لي بأنه قد بحث عني في كل مكان دون كلل أو ملل، وكان يعود كل يوم إلى الشجرة التي أسميتها أنا بشجرة العنكبوت، وأحياناً يفرح فرح الدنيا كلها عندما يستغرق في النوم فيجدني بخير انتظره لكي يعود تحت الشجرة.. قال إنه حلم مرة بأنه عاد ووجدني نائماً، فأيقظني من النوم وقال لي بأنه قد عرف الاتجاه الصحيح إلى مضارب بني تميم في دومة الجندل.. سألته في الحلم كم لبثت من الوقت.. قال لي تركتك لساعات قليلة. فهيا إلى هناك لكي ابتاع لك دواء الحمى من سوق العطارين.. وهو مكان وجدنا فيه الزحام شديداً، والمياه العذبة تحيط به من كل مكان، وسكانه في منتهى الكرم.. هناك طببني وعالج ابهامي، وأتم صفقته لشراء الحنة ودهن الورد، قال إني طلبت منه في الحلم أن نذهب من تونا للحج، فقال لي ان ذلك يتطلب عقد النية.. وفي العام القادم سنفعل ذلك..

- يبدو أن الحلم قد تحقق يا أحمداني، وإن كان ذلك بعد ضياعك.

رويت له قصة نجاتي من تجار العبيد وبالتحاقي بركب الخديوي عباس.. ففاضت عيناه بالدمع على مارأيت وعانيت.. وراح يأخذني اليه ويبلل ناصيتي بالدموع فأشفق عليه من هذا البكاء المرير، وبعد

قليل يواسي نفسه ويقول: (يقر بعيني أن سهيل بدا ليا)، وبأنه سيلازمني ملازمة شظاظ الضبي لمالك ابن الريب.. طلب مني أن نذهب لدومة الجندل التي حلم بها اثناء بحثه عني.. استغرقت وقتاً طويلاً في الموافقة على طلبه.. وهو أيضاً كان مستعجلاً للوصول إلى السماوة أكثر مني.. إلا أنه يريد الحصول على دواء لإبهامي الذي يعاودني وجعه، وأيضاً على الحجر الأخضر من هناك.. الحجر الأخضر قال توبة شرار النار بأنه يُجلب من الوديان، ويكتسب طاقته من ضوء القمر.. وسيساعدني في التخلص من المخاوف والأحزان التي لازمتني بعد تلك الرحلة المشؤومة.. فهيا بنا يا أحمداني إلى دومة الجندل.

أصبح توبة شرار النار يضرب في الأرض آخذاً يدي تحت ذراعه، لن يتركها مطلقاً بعد ذلك، كيما يلاحق القافلة التي كانت سائرة إلى دومة الجندل.. تذكرت ركضنا بعكس تيار النهر إلى بغداد.. كانت الملاحة في دجلة صعبةً، والسّفينة البخارية إذا أرادت صعود النّهر من البصرة إلى بغداد فالرحلة تقتضي ثلاثة أيّام ونصف على الأقل، وعندما ينخفض مستوى الماء في الصّيف،كانت السّفينة ذات المدخنتين تتقدم بصعوبة وبطء. يطل المسافرون الضجرون في هذه السّفرات الطّويلة على مناظر الضّفاف الجرداء، فحاجة السّفين للحطب، قد عرّت ضفتي النّهر من أشجار الطّرفاء التي تنمو بكثافة عليهما. كانوا يقفون على سور السفينة، ولا يرفعون أنظارهم عن تلك الشواطيء التي تحلق فوقها الطيور والنوارس. إنهم يكبرون أمام أعيننا، ويتشمسون أو يشربون الماء.. لا يلتفتون إلينا.. بالأمس ركضنا معهم، والآن نحن هنا نركض خلف ناقة بيضاء يمشي معها بعض الخدم الذين يحملون قطاً مدللاً لراكبة الناقة.

مررنا بسوق العطارين بدومة لجندل التي رآها توبة في حلمه، واشترى بعض الهيل والزعفران والمستكي الذي يبيعه بأغلى الأثمان

لطباخي الرز في دواوين الشيوخ.. كما اشترى لي الحجر الأخضر الذي يحصنني من المتاعب والأحزان، وقال لي البسه في معصمك ولا تدع غيرك يلبسه فتصيبك منه لوثة إذا كان سيء النية والقلب.. أخذ الحجارة إلى الجّراخ فثقبها ولظمها لي في خيط من الجلد ينعقد حول معصمي بواسطة حلقة من المعدن، لكنه تلكأ أيضاً قرب محلات العطارة، واشترى قارورة من العود المكي لأمي ريحانة... ثم راح يدندن مع نفسه بعد ذلك، فاسودت الدنيا في عيني، واكفهر وجهي، وعاد همي الذي أنساه حيناً ويعود أحياناً أخرى.. لماذا يشتري شرار النار قارورة العطر لأمي.. هاجت النار في جوفي، وعرفت حينذاك سر اهتمامه بالذهاب الى سوق العطارين.. ومن يدري فقد يكون هذا هو سر اهتمامه بي من الأساس.. وكلما قلبت القارورة بين يدي انتابني ضيق شديد لا يمكن تفسيره، أو أن تفسيره هو مما لا أستطيع استبعاده من تفكيري، وهو أن توبة لا يزال في نفسه الهوى لأمي، ولهذا يبلي الثياب والأقدام في التذلل إليها والعناية بابنها الوحيد في هذه الدنيا. أتيت معه إلى هنا، ثم وجدت بأنه لا يمكن لفتى صغير أن يفعل شيئاً، عندما يختلط عليه الأمر، سوى أن يضمر في قرارة النفس أمنية شريرة ينفّس فيها عن غضبه وحزنه.

جعلتني قارورة العطر أتذكر رقة حاله أمام أمي، فتمنيت أن يمتد ضعف حاله إلى المشي والركض، وأن يكون هناك من هو أقوى من توبة شرار النار، فيغلبه ويملأ قلبه بالحزن، وكنت أعرف أن أمنيتي العابرة تلك لن تتحقق، وأن توبة سيظل قوياً وعلى قدر من الهيبة والبأس والصيت الجميل إلى أن التقيت توبة في مضارب أعمامه، وأنا في الطريق إلى السفر بر بعد سنوات، فعرفت أن المرض أقوى من كل شيء، وأن توبة، الذي زفته البرية بطلاً للركض.. توبة الذي حتى شرطة المخفر لا تتمكن من اللحاق به، قد أصابه الهم و أبلاه الغم. فملأني مصابه ندماً على ما تمنيته وفكرت به.

-21-

كنت أظن أن كل همومي ستنتهي فور أن أقوم بإطلاق سراح نفسي باتجاه مكان واحد هو بيتي، فتنتهي كل معارك العالم، ولا تعود هناك مشاكل أو قلاقل أو أعداء يقلقون راحتي.. لم أكن أعرف بأن الحياة لا تستقيم مع الخير لوحده. وسيكون هناك الكره مقابل الحب... وسيكون هناك الظلم الذي وقع علي من تجار العبيد، وستكون هناك مشاكل على الدوام طالما أنا أتحرك من مكاني.. ولهذا أردت الانسحاب إلى نفسي بما يشبه النوم أو الغيبوبة.. اردت أن استكين خائفاً في كهف مظلم لا أخرج منه، أما لماذا أتعذب عندما أخرج منه، فلست أملك التفسير لهذا، ولا أجد سوى شموع الركض مع توبة تنقذني من أيام التيه في الظلام. في طريق يبدأ من حيث ينتهي... غير أني الآن زعلان منه.

كان حنقي على توبة يتناقص شيئاً فشيئاً خلال الطريق.. وما أن رأيت أمي حتى نسيت آلامي كلها.. وعادت سكينة الدنيا إلى روحي.. احتضنتني حتى أغرقتني بدموعها.. ودموعي أيضاً بللت شعرها وأنفها.. ظلت تبكي وهي تحضنني وتشكر الله على نعمة رجوعي إليها.. أنت وحيدي يا أحمداني.. انت وحيدي يا بعد رويحتي.. أنت حبيبي ونور عيني.. فيها يا آسيا هات فخارة الماء لأخيك من المؤكد أنه في عطش للماء البارد. وضعي له قطعة سكر في الماء لكي يسترد قوته.. لم أسمع من آسيا سوى الشتائم التي انهالت على الجدة زيتونة لأنها تقدمت وأخذت دورها في تقبيلي..

غرقنا كلنا تقريباً بالدموع التي ذرفتها العيون، ولم يهدئ روع الجميع سوى جراب من الورد الماوي حلت الجدة زيتونة عقدته بأسنانها الثلاثة.. ثم غلته على النار، وسقته للجميع.. كان يمكنني، عندما أنظر إليها، أن أتذكر سؤالها القديم لأمي:

- دجاجتك بيضن؟

فتجيبها أمي:

- نعم.

والعدد (ثلاثة) هو الذي يتبقى دائماً من فراخها مهما كان العدد كبيراً بعد فقس البيوض.. تذكرت أيضاً طشتها التي كانت تحممنا فيها واللحاف المتثقب الذي تغطيني به، والدرج الذي يترك فوقه السقاء ظله مع خالتي المجنونة... لا أدري لماذا هي قصيرة إلى هذا الحد. ولا يبدو عليها الإنزعاج أبداً من عدم زواجها.. انطيني بوسة فتعطي بوسة للسقاء الذي لا يكتفي بذلك، وإنما يأخذها معه إلى السطح تاركاً خلفه ظلاً أطول من الثاني.. لم تكن كبيرة في السن، ولكنها كانت تائهة العقل، ثم ضعف بصرها وأصبحت لا ترى بعض النملات تسير على حافة المعجانة عندما تخلط الماء بالطحين، أو عندما تخلط الخيار بالملح الخشن قبل وضعه في بساتيك الطرشي.

أرهفت السمع جيداً بدل النظر.. وكان توبة شرار النار قد ابتعد عن البيت، وترك لأمي قنينة عطر العود.. حملتها امي وتأملتها لوقت قصير، ثم أفرغت ربعها على ملابس آسيا وزيتونة وخالتي نومية.. كان العطر طيباً يبعث على السكينة، فقلت لنفسي بأن توبة لم يقصد من فعلته تلك أمراً سيئاً، وإنه قد ترك أيضاً قارورة ماء زمزم ليشرب منها الجميع. أما آسيا فلم أجد ما أهديه لها سوى علكة المستكي.... كنت غاضباً منه أشد الغضب في دومة الجندل، ألا أنني كلما مرت الساعات والأيام تناقصت حدة غضبي عليه حتى تلاشت تماماً، فهل هذا التلاشي من فعل الحجر الأخضر، أم أن هذا هو شأن المحبة بين الأحبة تمسح الغلطات ولا تنمسح.

الصوت يمر ثلاث مرات في اليوم، وبسرعة شديدة يثز لها الهواء، حتى أكاد أجزم بأن توبة شرار النار له أقدام لا تلمس الأرض أبداً.. وأنا أيضاً يجب أن لا ألمس الأرض مثله، وأن أطير بعيداً عن كل شيء.. وأمد رجلي إلى كل مدينة، ولهذا كنت أركض للباب كلما سمعت نباح كلبته براقش، أو سمعت صوت أقدامه في الدرب، وأحلم أن ألحق به حتى قطار الحجاز وميناء القنفذة. كانت أفضل الأفكار تأتيني عندما أركض معه.. تختلط عندي الأفكار وتتشعب في اتجاهات بعيدة. ولا أدري كيف يحدث هذا، فأنا أدرك وأتفهم وأسامح كما لو كنت رجلاً طاعناً في السن.. وفي العادة لا يدرك المرء ما يحدث من شطط أيام الشباب إلا عندما يبلغ سن الكهولة، وأنا، بقدرة ما، كنت استطيع أن أنظر وأتفهم وأتبصر، وكأني رجل عاش الدنيا بطولها وعرضها، وفي داخله ساعة لا تتوقف على وقت معين، مثل عمره الذي يراه يجري بسرعة هائلة.

لا علاقة لما قاله الحارث الروحاني بما حدث لي.. إنما وجدت الأفكار تغيرني دون قصد مني، فمن خلالها عرفت معنى الكثير من الأشياء، ومن خلالها فهمت أن الصمت هو الذي يأتي بها بدلاً من الكلام، وقد التقي الكثير من الناس، ويكون من الأفضل أن لا أشاركهم ما يهتمون به.. فهم يرتبطون بالأشياء أكثر من الأفكار، ولا بد في النهاية أن أشعر الخوف مع كل هذا الانغماس في هذه الأفكار، فعشت طفولتي كرجل عجوز، في نفسه أثر للجرح أو الألم. ولايدري لماذا يحدث له الجرح تلو الآخر، وهل الحال هذا معه فقط، أم هو هكذا لكل الناس، ممن لا يأبهون بهذه الآلام ويمضون غافلين، ومتناسين لعواصف الحياة. أو لا يفكرون بها أصلاً.

عاش الاحمداني طفولته يصمت أكثر مما يتحدث، فظنته أمه مريضاً، وأرادت له أن لا يظل جامداً خائفاً ساكناً في مكانه، فتضربه الحياة وتزيحه من سفينتها، وكانت تحثه على أن يترك صمته وخوفه، ويتصرف كما يتصرف أقرانه الصغار، ولما لم تجده مستجيباً كلامها، كادت أن

تيأس منه وتتركه وشأنه.. غير أنها عندما التقت بشرار النار، الذي طالما سمعته عنه، وطلب منها أن يتخذه رفيقاً له في الركض، وافقت أمه على الفور، وصار الركض يجعله ينسى آلامه، وكأن هناك ستارة تنسدل على حزنه، حتى وإن كانت هذه الستارة مليئة بالثقوب.

بئسها من ستارة، جعلتني أخاف حتى من صديقي توبة، وأظن به الظنون عندما اشترى قنينة عطر العود لأمي.. ألا أني عدلت عن ظني عندما رأيته يأخذني معه إلى أول قطار جاء من بغداد إلى البصرة وسمع صفيره كل أهل البادية. كان توبة قد قرر أن نسابق ذلك القطار الأول الذي يمر في السماوة، ورحت معه أركض حتى وصلنا القطار.. اشعة الشمس تنعكس على شكل أضوية مشتعلة في القطار تحيط بها حلقات من النسوة المرتديات السواد.. وجوه تظهر ثم تشيخ ثم تختفي.... وحين أصل إلى هذه الحالة الغريبة من التفكير سأرى القطار كله قد اختفى. ويبقى دخانه فقط يتصاعد ويتلوى في الهواء. سألني توبة:

- ما بك؟

تنهدتُ خوفي، وقلت لشرار النار بأن وحشاً قد هجم عليّ من مكان بعيد، كأنه كان يقف على مسناة بحر عالية، وأراد دفعي إلى لجة الماء، فقال لي: هيا بنا نركض إذن مرة أخرى، الحركة وحدها هي التي تمنع عنا الحزن وتهدينا راحة البال.. ورحنا نركض مرة أخرى حتى سبقنا كل الظلال والرجال والتلال. أما حلم شجرة السدر فإنه لا يختفي إلا عندما يهدني الركض الطويل مع توبة. أصل حينئذٍ إلى حالة عجيبة من الراحة والسكون، وأدرك بأن توبة شرار النار هو رفيقي الوحيد، وبأني يجب أن لا أشارك الناس الذين يملؤون فراغ الدنيا شيئاً، بل أشعر بالخجل من أن يكون لي مكان بين هؤلاء الغافلين المتناسين لمصائب الحياة، أو الذين لا يفكرون بها أصلاً، لأن عليهم الاختيار بين الحياة، أو التفكير بجدوى الحياة.. وبالتالي يختارون الحياة لأنهم مهيؤون للحياة.

كلما أردت أن أضع رأسي بينهم، اصطدم بتلك الدرابين الأكثر عتمة،

أما إذا ابتعدت عنهم، فيجب أن أكون جامحاً مغامراً كشرار النار، فالتمرد موجود دائماً على الطريق المرسوم منذ البداية، والحياة يجب أن لا تبقى على ما هي عليه.. وهناك شيء فيما يفعله التمرد يجعل الحياة تتوازن بهذه الطريقة. إلا أن هؤلاء المتمردين الشجعان يجب أن لا يدعوا الدروب الجديدة تؤدّبهم دون مقاومة أو تمحيص، لأن الأحداث في هذه الحالة ستتلاحق سريعاً ناحية النهاية، ولا أعرف ما هي العلامات المؤكدة على صواب هذه النهاية؟. كان من الصعب علي أن أفهم أي شيء، حتى أحلم به، أو أراه من باب خيال مفتوح..

أما لماذا أفكر بهذه الطريقة؟ فلا أعرف.

وقف الطير فوق رأس آسيا مرة أخرى عندما ماتت الجدة زيتونة للمرة الثانية. ظلت المسكينة حائرة لا تدري ماذا تفعل، فعندما لا يبدر أي فعل من الجدة زيتونة نفسها، لا يمكن لآسيا أن ترد عليها. فبأي شيء ترد عليها وهي لا تبادر بفعل شيء ما أو تقول شيئاً.. صمخت في موتها هذه المرة.. ممددة على الأرض، مغمضة العينين، وآسيا غارقة في الصمت، جامدة في مكانها، وقد بدا عليها أنها لن تعرف كيف تتصرف ما لم تقم الجدة زيتونة بحركة أو تتفوه بكلام يجعلها ترد عليه. ظلّتْ آسيا ترفع بصرها بين الجدة زيتونة وأمها، منتظرةً تفسيراً لما حدث، وعندما ارتفع عويل النساء لم تتمكن من أداء أي حركة تحاكي ما يدور من حولها.. بل سيطر عليها الوجوم، والحزن أيضاً ألمّ بها، وفهمت آسيا بأن زيتونة قد اختفت إلى الأبد. انتهى الأمر إذن، ولن يعود أي شيء كما كان عليه من قبل.. فآسيا لم تبصق على الجدة زيتونة للمرة الأولى في حياتها. كانت قد احتضنتني عندما كنت ذاهلاً من الكتاكيت السود التي اندلعت من تحت الفروجة السوداء، وهذه المرة أنا الذي احتضنتها وهي خائفة، ثم انخرطنا سوية في البكاء.

عندما تضيق الحياة، أو تتوسع فإن ذلك يكون بقضاء وقدر.. و أصبح بيت زيتونة خالياً من كل قضاء أو قدر. اختفت تلك المرأة التي تواسي

وتشاكس وتخفف بمزاحها عن الرجال الذاهبين للحرب، أو العائدين من المقابر، اختفت ولم يتبق منها سوى مفاجأة العم نعيم.. وضحكة عميقة رسمتها الأقدار القاسية عندما أخرج العم نعيم صورتها من جعبته وقال:

- انظروا لهذه الصورة..

لم نصدق ما حدث؟ الجدة زيتونة تضحك وتدخن من جديد.. الجدة زيتونة أصبحت صورتها موجودة مع صور العم نعيم التي كانت تتكاثر في كتابه مع كل زيارة يقوم بها للسماوة... لم نتوقع أبداً أن يضم ذلك الكتاب صورة الجدة زيتونة.... يا للدهشة والعجب... وكأنها قد قامت من موتها وعادت الينا من جديد... تفاجأت آسيا إلى درجة أنها جلست إلى الأرض وتكومت بوجهها كله فوق الصورة، ولو مرت زيتونة نفسها وقامت من موتها، لما القت لها آسيا بالاً أو أخرجتها من ذهولها.. لاحظتْ بأن صورة الجدة زيتونة هي أكثر الصور إثارة للعجب، فكانت كل صور الأطفال جامدة بين الصحو والغيم، إلا صورة زيتونة جالسة على عتبة البيت والسيكارة في يدها.. فالدخان الطالع منها كان يتحرك بالفعل حتى يكاد يخنقنا.. والمعاضد الذهبية ملتمة إلى بعضها البعض، ويكاد بريقها يصل إلينا.. حملتها يداها عندما كان حية... وأحبتها كثيراً.. فتمسكت آسيا بصورتها وحزنت بسبب خدش بسيط أصابها.. وتحسرت عليها أيما حسرة..... تمنى شرار النار لو أن نعيماً يصور آسيا أيضاً، غير أنه كان قد غادر السماوة ذاهباً إلى بغداد لتصوير أول سيارة وصلت الولاية قادمة من حلب عبر الصحراء الغربية.

شيء غامض ومحير أن أرى ذلك الرجل المصور عندما ذهبنا أنا وتوبة شرار النار إلى الصيدلية في بغداد من أجل شراء دواء لابهامي.. فإذا بالصيدلية تقع قريبا من استوديو نعيم في شارع الرشيد.. قريباً من حمام الحيدرخانة الذي ذهبنا إليه للاغتسال والاستحمام والتدليك. أتذكر وأنا غاطس بالبخار الساخن تلك الصور التي أطلعنا عليه نعيم في واجهة الاستوديو، وقد ظهرت فيها البساطيل وأحزمة الطلقات لجنود

التقط لهم الصور في محله قبل ذهابهم إلى الحرب.. روى لنا نعيم كيف أن قرعة الوالي الجديد ستختار من بين ثلاثة عشر ابناً من أبناء كل عشيرة اسماً واحداً في عملية تجنيد إجباري فُرض على الشباب، وقال نعيم إنهم يلتقطون الصور عنده قبل التحاقهم بالعسكرية.. صحيح أن الكثير منهم يفرون من سطح لأخر هرباً من التجنيد.. وإنه جوبه بحركة تمرد وعصيان في محلات قنبر علي وباب الشيخ والفضل وأغلب محلات ومدن العراق، ألا أن الولاة العثمانيين، منذ إعلان مدحت باشا للتجنيد الإجباري، ولحد الآن ما فتئوا يرسلون الجيش للقضاء على كل اضطراب أو تمرد ضد تجنيد أبنائهم وسوقهم إلى السفر بر.. فتتم دعوة الـمكلفين الذين تصيبهم القرعة مرة أخرى، ويقبلوا طائعين.

-22-

دائماً سيظل توبة شرار النار في قلبي.. محبته هي زادي حتى إذا كنت أتضور ألماً على ما حدث لأولادي.. أمر غريب أن تستقر في نفسي صورته، حتى وإن لم أره طيلة أعوام.. أو أن أظل أفرح برؤيته مهما رأيته. هناك يقف في الباب ينتظرني لأخرج إليه كلما جاء يأخذ الأحمداني، إلى أن جاء يوم كنت ألم فيه الملابس من السطح وقت الغروب، فجاء مُشعل الفوانيس يحمل الدرج إلى دربونتنا، ولم أر بعدها شرار النار يمر من بابنا.

حاول توبة شرار النار أن يصعد الدرج مع عاتي مُشعل الفوانيس بحجة تقديم العون له، والحقيقة غير ذلك، فقد شعرت بأنه قد فعل ذلك لأجلي.. وأنه أحس بوجودي على السطح، فأراد أن يراني..... ألا أنه اختفى بعد ذلك اليوم من دربونتنا، التي هي أول دربونة أضيئت بالفوانيس، ولهذا حملت اسمها، ولم أر شرار النار يمر فيها بعد تلك المرة التي سمعته فيها يهم بصعود الدرج.

وراح يوم وجاء يوم آخر، فسألتني أختي نومية:

- ومتى سيكون عرس توبة شرار النار؟

شعرت بطعنة في قلبي.. واشتعل لهيب النار من قدمي وحتى سمت رأسي.. هل يمكن لتوبة أن يتزوج واحدة غيري؟ وماذا سيحدث لي إن أقدم على هذا؟. تخيلت شموع الكافور تقاد وتوضع أمام العروس. تخيلت مناديل الحرير توزع على المحتفلين وبداخلها الحمص والملبس

والحامض حلو.. تخيلت طاسة الحنة قد فرغت من حنتها المعجونة منذ الليل، تخيلت العروس تنتظر عريسها توبة وفي كل يد شمعة مشتعلة. تخيلت كل شيء، ثم خجلت خجلاً شديداً واستحيت مما تخيلت.. توبة شرار النار لم أفكر به زوجاً لي، ولا تمنيت أن أتزوجه سوى في الأحلام، فلماذا أحزن إذا تزوج غيري؟ وكيف يمكن أن أشعر بكل هذا الغيظ لمجرد سؤال عابر من نومية قالت فيه: متى سيكون عرس توبة؟

بقيتُ عدة أيام أدور حول نفسي وحول نومية، بل أماطل في دوراني حولها، لسؤالها في النهاية إن كانت تعرف شيئاً عن هذا الموضوع؟، فتقول لي:

- كلا، لا أعرف؟

- لماذا سألتِ إذن متى سيكون عرس توبة؟

- لأنه اختفى فجأة من الدربونة، ولم يعد يأتي حتى لأخذ الأحمداني معه.

- ظننتك سمعت شيئاً عن عرس قريبٍ له.

- أنا أعرف قصة زوجته الأولى فقط.

- وما هي قصة زوجته الأولى؟

- كان شرار النار يضحك ويقول لأمه لا أتزوج حتى أجد بنتاً أحلى من القمر، وطبخها أطيب من طبخك. فتدعو له أن ينال مراده. وفي يوم من الأيام وهو يتجول بين الحقول والبساتين، لمح صبية مثل البدر التمام، تحمل صينية على رأسها، فاعترضها وسلّم عليها وسألها ما تحمل على رأسها؟ أجابته: إنها تحمل الغداء إلى والدها، فطلب منها أن يذوق طعامها، ولما وضعت الصينية أمامه، أكل من الطعام ووجده شهياً لم يذق مثله في حياته... سألها عن بيتها، فدلّته عليه ومضت في حال سبيلها.. عاد شرار النار إلى أمه ملهوفاً، وقال لها لقد وجدت أحلى عروس في البلد، وطعامها أطيب طعام ذقته في حياتي، وطلب منها أن تذهب

بسرعة وتخطبها له. ذهبت الأم وخطبت الفتاة، وبعد أيام أقام العرس وتزوجها، وقضى شرار النار معها أجمل الأوقات وطبخت له أشهى المأكولات. و في يوم عاد من الصيد ومعه إوزّة كبيرة، وطلب من أمه وزوجته أن يطبخاها بالرز، وخرج إلى عمله. أمرت العجوز كنتها أن تنقّي الرز ولا تضيع منه حبة واحدة، فأخذته وصارت تنقيه، فسقطت منها حبة وجاء الديك وأكلها، فأمسكت به وذبحته وأخرجت الحبة منه، فغضبت العجوز منها وبهذلتها، فانزعجت الكنّة ودخلت غرفتها وأغلقت عليها الباب زعلانة وحزينة. عندما عاد شرار النار حاول إرضاءها فلم ترض، وقالت له: لقد طفح الكيل ولم أعد أتحمّل أكثر من ذلك، إما أنا وإما أمك في البيت. فكر شرار النار قليلاً فلم يجد حلاً سوى أن يأخذ أمه إلى المغارة قرب البحيرة ليضعها هناك، ويجلب لها الطعام كل يوم، وبما أنها أصبحت عجوزاً فكيف يمكن أن تقضي بقية حياتها هناك؟

- هل هذه قصة المغارة نفسها يا نومية؟

- نعم.. لقد عاشت العجوز في المغارة حزينة وحيدة تصلي وتصوم، وتدعو الله أن يهدي ابنها ويحفظه ويسعده، وكان الشاطر حسن يحضر لأمه الطعام والماء كل أسبوع، ويتفقّد أحوالها وحاجاتها ويعود.

- الشاطر حسن؟

- نعم، فعندما جاء الشاطر حسن يتفقدها، شاهد الأرض غير الأرض، والخير كثير والماء وفير، وأمه تعيش في جنة، فتعجّب وسألها عن القصة، فحكت له حكاية الشابين اللذين سألاها عن الصيف والشتاء، فأخذت تجيبهما، وكانت كلما تنطق بكلمة تخرج من فمها جوهرة، فزاد عجبه وفرحه، واعتذر من أمه، وطلب منها السماح فرضيت عليه، وحملها على الحمار وعادا إلى البيت، فاستقبلها الناس والجيران وفرحوا بالجواهر التي تخرج من فمها، وصاروا يجمعونها ويأخذونها إلى بيوتهم..

- ما هذه القصة العجيبة يا نومية؟.. أردتك فقط أن تخبريني أين اختفى شرار النار، لا أن تقصي علي حكاية الشاطر حسن.

- ألا تريدين معرفة نهاية الحكاية؟

- لا أريد سماعها.

- هذا أفضل. لأن التناجي بين اثنين مكروه بوجود شخص ثالث.

- ومن هو هذا الشخص الثالث؟

نظرت نومية في الفراغ وضحكت.. أومأت برأسها وهزت جبهتها في الفراغ، ومدت يدها لأحد لا أراه.. واستمرت تروي قصتها بصوت أخفض.. نومية استمرت تحكي حكاية الشاطر حسن.. وتمد يدها في اتجاهات عدة.. قومي يا نومية، فلا تقوم من مكانها، بل تحفر في الأرض قليلاً لدفن شيء غير موجود تخرجه من قبضتها. لم أكن أعرف قبل ذلك أنها غائبة العقل إلى هذه الدرجة، وبقيتُ لا أعرف ماذا أفعل سوى أن أصعد كل يوم إلى السطح وأنظر هناك إلى الدرب.... لم تعد الجدة زيتونة معي لترقيني وتحصنني من الوساوس وتدفعها عني بالاستعاذة من الشيطان، ولا ستكون أعمالها موجودة لطرد السحر بالماء المرقي الذي ترشه على ملابسي وفراشي.. لم تعد لي حيلة بين أصحاب الحيل، فمن سيدبر أمري سوى الله خالق كل حيلة. أسأله سؤالي عن توبة شرار النار، فتسألني تحية أم ياسين:

- لا أعرف ماذا حل بهذا الرجل.. ألم يعد يأتي لأخذ الأحمداني؟

- كلا لم يعد يأتي. اختفى فجأة وأنا أيضاً لا أعرف ماذا حل به.

لم أحظ بجواب شاف من أحد، والأحمداني نفسه لم يكن يعرف أين اختفى توبة شرار النار.. فبعد عام من ذلك اليوم الذي عادا فيه من رحلة الحجاز مع قنينة عطر العود المكي، لم يعد توبة يظهر في أي مكان إلا في أحلامي.. حتى أنها كانت تجعلني ألجأ للنوم كلما أردت رؤيته، وهناك وجهت له سؤالي:

- أين أنت يا توبة؟ هل تزوجت؟

- أنا ولدت وحيداً وسأعيش وحيداً.

ثم أطرق بوجهه إلى الأرض، وقال إنه في غمرة ركضه أصبح الناس هم الذين ينظرون إليه وهو لا ينظر إلى أحد. وطالما يعيش على هذه الأرض فلن يرى بين النساء امرأة سواي.. ولن يرف قلبه لواحدة غيري.... قال لي: لا حيلة لي فيما حدث... أردت صعود الدرج من أجل أن أراك. وأن أرى لون عينيك وشكل وجهك.. غير أني لم أتمكن من الصعود إليك، مع أنك عندي بالدنيا كلها.

لم أتوقع من الحلم أن يوافيني بالجواب على سؤالي.. ولا أن أرى تلك النظرة الجميلة التي تطل من عينيه الملونتين لكي تمنحني الراحة والسرور، فقلت له بأني أنا أيضاً لن أرى بين الرجال رجلاً سواه. واستيقظت من النوم وأنا في غاية البهجة.

-23-

أذكر أننا عدنا أنا وتوبة شرار النار من رحلة الصيديلية قبل سنوات على عربة يجرّها حصان واحد ينخسه العربنجي بالقمجي، وكانت أقرب إلى (برجقة) منها إلى عربة سفر، نلنا فيها ما نلنا من ضعضعة الضلوع بسبب عثرات الطريق الترابي المتعرج.. استغرقت السفرة من حمام الحيدرخانة في بغداد إلى قهوة الصكارين في السماوة ثلاثة أيام، مع مبيت ليلة واحدة في خان الوسط لانعدام الأمن في السفر ليلاً، وخطر سلابة المسافرين من قطاع الطرق، وكان هناك أيضاً تمرد عشائر الجنوب بسبب التجنيد الإجباري.

لم أكن أعلم أن التجنيد الإجباري الذي فرضه الوالي مدحت باشا على العراقيين قبل أربعين عاماً، سيطالني بعد سنوات من تلك الرحلة إلى صيدلية بغداد، ولو كانت أمي تعلم بأن قانون العسكرية ينص على أن وحيد أسرته والمصاب بعاهة في قدمه لن يشمله التجنيد الإجباري، لما باعت ليرتها الرشادية لاصلاح إبهامي، ولا أعلنت أن هارون أخي لا يزال على قيد الحياة، وأنها قد تأكدت من ذلك عندما زارها مرات خاطفة، وقال لها بأنه انخرط بالعمل حداداً في معمل العبة خانة لتصليح بنادق الجيش العثماني.

عندما عدنا من رحلة الصيدلية تلك قبل عدة أعوام.. كنا قد مررنا بتلك الواحة الجميلة التي يعيش فيها أعمام توبة شرار النار.. واليوم

أمر مرة أخرى بتلك الواحة ذات البط والسمك والجاموس، فلم تكن مشاعري كما كانت أول مرة.. الأشجار قد تناقصت في تلك الواحة، وتحولت أجزاء كثيرة منها إلى ساحات ترابية أُنشأت فيها البيوت، وشُقت بينها بعض الطرقات.. فأصبحت هناك قرية قد قامت بدلاً من تلك الواحة، وتم إيصال الفوانيس إليها باعمدة ضوئية تتنتشر بينها بيوت مشيدة بالطابوق بدلاً من بيوت اللبن القديمة، حيث أن أغلب شرطة الهجانة فيها قاموا ببناء تلك البيوت لهم بين المخفر والوادي، وشيئاً فشيئاً انتشرت بيوت أخرى حول مخفر الشرطة، وأقيم مستوصف صحي بقرب المخفر، وتم حفر الأساس لأول مدرسة ابتدائية تقع على الطريق الرئيس الذي شق فيها.

دخلتُ إليها، مع عشرين شاباً اقتادتهم الحكومة، كجندي مكلف يطلقون عليه اسم جندرمه نفر، ومعنا جنود وعرفاء ورئيس عرفاء متطوع يسمى بالباش جاووش.. سرنا من السماوة إلى الرميثة، ثم بتنا ليلة واحدة في العراء قريباً من تلك البيوت.. وكان من المتوقع من الأطفال الذين يعبثون بكل شيء أن يخربوا تلك الفوانيس المعلقة في الهواء، إلا أنهم كانوا ينظرون إليها مسحورين ويمارسون مع ظلالهم تحتها ألعاباً أقرب للعراك منها للعب.. أولئك الأطفال جميعهم التحق آباءهم بالحروب العثمانية على الجبهات الروسية التي كانت تكافح من أجل صد أطماع الروس بالبحر الأسود وممراته. تضعضع العثمانيون وشارفوا على الانهيار بسبب تلك الحروب، وانسحبوا من تلك الجبهات كما كانوا قد انسحبوا من جبهة النمسا، ثم سينسحبون من العراق ايضاً عندما يأتي الانكليز من البصرة ويعج الجنوب بالجنود الانكليز مع الهنود في حرب أخرى لانتزاع العراق عنوة من تركيا.. أولئك الأطفال كان آباؤهم هم الشحم الذي يضيئ الآن تلك الفوانيس المعلقة في الدروب، وعندما ستتبدل مظاهر الناس مرة أخرى، ويرتدون ملابس شبيهة بملابس الانكليز، أو يصعدون المركبات والقطارات والطائرات، فإن تلك

المركبات لن تمشي أو تطير بالزيت أو الشحم، وإنما أحفاد أولئك الأطفال سيكونون هم الوقود الذي يحركها ويضيء العالم كله.

في الليل قدم لي جندي اسمه عبد الرحمن رمانة، وقال لي:

- قطفتها من شجرة البستان، خذها فهي لك.

لم آخذها.. فنظر لي نظرة فاترة بعد أن كانت نظرته مريبة.. الذكرى محفورة في القلب و تستحوذ على الأحلام وعلى الدنيا.. إنها تبادلني العسل بالحنظل وتملأ طعامي بالزقوم. الحلم يراودني عند وضع الرأس على الوسادة.. يمكن للحلم أن يجعلني ثرياً أو مجنوناً أو شجاعاً، وقد أنكفئ على الطين الطري لضفة النهر، وأضع وجهي عليه لاستنشق رائحته الطيبة، ولكن في النهاية هناك من يتمدد فوق جسدي ليترك فوقه ظل ثقيل كالقيء.. إنه سر محفوظ في مكان لا يفارقني أبداً، وعندما لا يكون هناك أحد أحبه وأركض معه، سيبقى مختبئاً في مكانه لباقي الحياة.

في الصباح كانت القرية مكتظة بالأطفال والرجال والماشية.. زال عني خوفي وازداد شوقي لأمي.. لن أراها بعد اليوم، وسأفقدها مثلما فقدت توبة لسبب أجهله تماماً. فقبل سنوات لما وصلنا دومة الجندل على الجهة الأخرى من الحدود ابتاع لي توبة قارورة من عطر العود المكي، وقال احملها هدية لأمك عندما تعود.. انتابني ضيق شديد لا يمكن تفسيره سوى بما تذكرته من أيام تودده لأمي، وراودتني أمنية شريرة بأن يحدث ما يسوء توبة، أو يثقل أقدامه وحركته.

قلت في سري دَعَوتك يا رب أن تثقل أقدامه وحركته، فلا يبقى خفيف الأرجل ولا خفيف القلب، ومع أني تراجعت عن تلك الأمنية، غير أنها تحققت، يا للغرابة، فاختفى شرار النار بالفعل بعد عودتنا من رحلة الحج ودومة الجندل بعام واحد.. تمنيت بصدق أن لا يكون توبة قد أصيب فعلاً بالأذى. وأن لاتجد أمنيتي لها طريقاً إلى التحقق. فماذا حدث؟ هل كانت السماء غاضبة مني؟ تستجيب لي، وأنا أتمنى أمنية من ظهر قلبي في لحظة عابرة.. وتتخلى عني، وأنا أدعوها من باطنه

لتخليصي من أصعب لحظاتي في الحياة مع صاحب شجرة السدر..... توبة اختفى فجأة، وأكاد لا أعرف عنه شيئاً سوى أخبار غير مؤكدة بأنه قد مشى من الولاية، لأنه لم يعد يتمكن من الركض.

سمعت بأنه أصيب إصابة شديدة في معركة وقعت بين أهل الكويت وأنصار سعدون باشا من شيوخ المنتفك.. وقال الناس بأن علاقة مبارك بالمنتفك تنحدر وتتأزم باستمرار، فإمارة حائل تبحث لها عن منفذ على البحر، وكان شيوخ المنتفك يتحالفون معها ضد مبارك مما جعله يدخل معهم في معركة الهدية. في ذلك العام أرسل مبارك ابنه جابر الصباح على رأس جيش قوامه ثمانية الاف مقاتل.. والتقى الجمعان في جريبيعات الطول، التي تقع في الشمال الغربي للكويت، وهناك ذهب توبة شرار النار، كما قال أهل السماوة، وقاتل مع جيش المنتفق، الذي لم يكن يتعدى خمسمئة مقاتل، مع ذلك فقد انتهت المعركة بانتصار كبير لأهل المنتفك وغنائم لا تعد ولا تحصى.. فتفاخر المهوال قائلاً: (لملمها مبارك واهداها). أما الكويتيون فقالوا: (تركنا أموالنا لأبن سعدون هدية)، ولهذا فقد سميت تلك المعركة بمعركة الهدية.

هذه هي المرة الأولى التي يختفي بها توبة من الولاية بهذه الطريقة، وأصبح اختفاؤه حديث أهل السماوة، فقالوا ما قالوا عن معركة الهدية، ثم لم نسمع عنه خبراً بعد ذلك.. ولا يجدي ولا ينفع أن يسأل طفل دون جواب. لأن لا أحد يمتلك الجواب.. ألا أني أشعر بأنه لم يمت بعد.. ولا أعرف أين هو.. ولو كان قد قتل في تلك المعركة كنا سمعنا بذلك.. كان توبة لا يزال في الرحم عندما سمع الناس صخباً عند مجيء الحوت فظنوا أن باخرة تتقدم للشاطيء، غير أنهم لم يروا أنواراً. وفي الصباح شاهد أهل القرنة حوتاً يندفع في الماء من جهة إلى أخرى، فاغرق زورقاً كان يعبر النهر. وظل هذا الحوت حديث الجنوب كله لعد شهور، مع أنه مات خلال ساعات لكونه لا يستطيع الحياة في الماء العذب.

توبة هو الذي قال لي بأنه قد ولد في العام الذي دخل فيه الحوت

إلى نهر دجلة ووصل إلى قصبة النبي عزرا المعروف بالعزير.. وقد حدد دخول الحوت بالعام 1880 أحد موظفي شركة الملاحة التجارية النهرية في العراق المعروفة بشركة (بيت لنج)، وهو اسكندر جوزيف زفوبودا، وكان هذا الكاتب قد بدأ يدون كل يوم، وبدون انقطاع، تصرفاته ومشاهداته منذ عام 1863، حتى وفاته في عام 1908، وقد كتب الأحداث التي مر بها في دفاتر مجلدة بلغت صفحاتها نحو ثلاثين ألف صفحة. ومن بينها حادثة دخول الحوت إلى نهر دجلة ثم نفوقه هناك. واسكندر جوزيف زبوفودا صاحب دفاتر اليوميات هو ليس نفسه اسكندر زفوبودا المصور، والذي قال نعيم عنه بأنه من أوائل المصورين الفوتوغرافيين في العراق. ولديه صورة التقطها لإيوان كسرى في المدائن تظهره كاملاً، أي قبل انهيار جناحه الشّمالي في العام 1887.

قال لي توبة بأنه كان لأبيه بعض الإلمام بالقراءة تعلمه في الكتّاب.. فسجل تاريخ ميلاده على غلاف القرآن الكريم تبركاً وتيمناً، بينما بعض العوائل كانت تكتفي بابلاغ مختار المحلة بالولادات. أما الوفيات فكانت تسجل أما على شاهدة القبر، أو في القسام الشرعي الذي يُستخرج من المحكمة الشرعية لتثبيت الإرث أو النسب. ألا أن توبة لم يمت بعد، أنا متاكد من ذلك، وستسجل وفاته قبل وفاة قريبه نعمان الذي اشتغل أيضاً بشركة لينج للملاحة، وكان قد رزق من عمتي غزال بسبعة أولاد أولهم شعوبي الذي جاء إلى الدنيا في سنة (كتلة لجمن)، ثم قام أوليفر ريد بتشخيصه بعد عشرات السنين لاستعادة ثورة العشرين بطريقة مختلفة عن الصور التي يلتقطها نعيم.

اشتقت إلى توبة شرار النار دائماً، وتمنيت أن أراه.. والآن أيضاً أشتاق إليه وأتمنى ان أراه.. نام جميع الجنود في العراء، وبقيت ساهراً أفكر بما حدث لي في الحياة، وأتذكر أمي وأختي آسيا، وأيامي مع جاسم الذي أصبح اسمه (توبة) بسببي.. استعدت رحلتنا معاً منذ أن جاء لي بهدية

كرسي الجريد في يوم الختان، وحتى تجوالنا بين الواحات والبوادي، ثم ذهابنا إلى واحة أعمامه التي أشبهت الجنة. ياللعجب أن أمر بها الآن وأنا أعاني ما أعاني في رحلة مخيفة تعصر القلوب بحيث لا يبقى مكان للتمني، أو توقع أي وعد أو سعد فيها.

- أيها الفتى المسكين.. لماذا تبكي؟

- .....

- لماذا تبكي يا أحمداني؟

كان هناك من يزحف على الأرض. ويرفع لي وجهاً تبلله الدموع.. أول أن التفت اليه أضاءت الابتسامة وجهه، واشعلت النار في قلبي.. أراد الوقوف ولم يستطع.. وانفرجت أساريره عن ضحكة مبهوتة وقيام لم يكتمل..

- لا أصدق بأني أرى الأحمداني؟

- تـــ.. تـ.. توبة..

- أنا توبة فلماذا تبكي؟

أشرق فرح الدنيا كلها من عيوني.. وشعشعت شمس بعيدة أعادت روحي إلى حضنها الدافئ. كنت جالساً على الأرض مربوطاً بحبل غليظ إلى الفتى عبد الرحمن الذي أراد أن يعطيني الرمانة في المساء.. كان عبد الرحمن نائماً.. فاحتضنتُ توبة المصاب في رجله وروحه، وراح هو يختض بالبكاء ويقول بصوت مضطرم:

- لماذا تبكي يا أحمداني؟

- بكيت لأني رأيتك.

- كنت تبكي قبل أن تراني!

- كنت أفكر بأمي وأهلي وبك.. وأبكي لأني لن أراكم بعد الآن.

كفكف دموعي، ثم سألني:

- إلى أين؟

- لا أعرف.

- كيف أخذوا العدّاء الأربد؟ لماذا لم تركض؟ لماذا لم تهرب منهم؟

- هربت منهم يا توبة، فضعت وخفت أن تلقفتني الذئاب في نهاية المطاف.

- ألم أعلمك الاتجاهات كلها؟

- بلى علمتَني يا توبة، فكانت الذئاب لي بالمرصاد؟

- هذه أنصاف الطريق قبل الحدود، فماذا عن خلف الحدود؟

- أنا وصلت إلى الحدود ثم عدت أدراجي... ألا تذكر ماحدث لي خلف الحدود؟ الموت هو ليس أسوء ما يحدث للإنسان يا توبة. والموت كان عندي أهون من ألم الفراق وحيداً حتى منك... عرفت أنه لا طاقة لي على تحمل ألم لا يمكن نسيانه إلا بالموت، فقلت أعود أدراجي، فقد تكون لي فرصة بالنجاة، وإن لم تكن، فلن أبالي بالموت.

- لا أصدق أني رأيتك؟

- ولا أصدق أنك مشلول في مرابع أعمامك.

- ألم أطلب منك أن تحدثني عن الطائرة قبل أعوام؟

- ما ذكرّك بها يا توبة؟ حدثني أنت.. ماذا أصابك؟

- حدثني عن الطائرة أولاً؟

- سأحكي لك شيئاً عنها كما رأيتها في الحلم. إنها عربة جوية يقودها رجل واحد، بعضها بقمرة حديدية من أجل السفر، والأخرى بقمرة شفافة من أجل القتال.....

- هناك كلام كثير لم تقله؟

- .....

- اشتقتُ أن أسمع ما تراه في أحلامك، فهيا أكمل.

- .....

- لماذا تبكي يا أحمداني؟

اقترب مني توبة زاحفاً على مؤخرته. توبة الحصان المطهم أصبحت دشداشته ملتصقة بالأرض، وساقه خائنة لخطواته.. احتضنني بكل ما يملك من قوة، وكان وزنه قد أصبح خفيفاً كالريشة إلى درجة أني نهضت، واستطعت حمله بسهولة بين يدي. ظهره فوق ساعدي ووجهه إلى السماء. المفروض أنه على مشارف الاربعين من العمر، فقد ولد في عام الحوت، ولكنه كان ضئيل الحجم مثل طفل صغير.

وأنا منذهل من خفة جسمه، سألته مرة أخرى:

- ماذا حدث يا توبة؟

- هذا هو حال الدنيا.

- ماذا حدث؟ أخبرني، فقد اختفيتَ من السماوة وبحثت عنك طويلاً دون أن استدل عليك.

- لم أشأ أن تراني على هذه الصورة.

- أخبرني ماذا حدث؟

- وقفت أمام السلم فارتعشت اقدامي وأصابها الشلل.

نظرت إلى الحبال في قدمي فوجدت أني لا أستطيع فكها، ولكن المسافة بين القدمين تكفي للركض.. راوحت في مكاني أرفع قدماً وأضع أخرى.. تسارعت خطواتي قليلاً وتحركنا سوياً إلى أعالي الهواء وأدناه. قدماي تراوحان فوق التراب بما يشبه الهرولة، ويتملكنا إحساس بأننا نركض بالفعل، حتى بدأت أساريره تنفرج عن ضحكة عريضة والدموع تنهمر من عينيه، وبدأت انفاسي تتهدج من الفرح لا من تعب الهرولة.. توبة لا يستطيع المشي.. وأنا أحمله فوق ذراعيّ وألهث.. انسدل الستار على حزني لحظات قليلة بالرغم من أننا لن نصل إلى أي مكان، ولولا أن الستارة مليئة بالثقوب التي تسرب منها الحزن مرة أخرى، لكانت سعادتنا ممتدة إلى الأبد... ابتعد عني عدة سنوات ولكني لم أنسَه أبداً، فليست العيون وحدها هي التي تبيضّ من الحزن.. القلوب أيضاً تبيضّ من الحزن.. فلماذا تلف الأقدار حبالها حولنا منذ البداية؟ ولماذا الفراق ينهي كل حكاية.

-24-

في الصباح جـاؤوا لنا بالتمر بدون خبز البر أو خبز الشعير.. فالقمح كله قد جُمع بالقوة واختفى من المستودعات لإرساله للجنود المتواجدين على الجبهات في الحرب.. فحدثت المجاعة، وحل عام كعام الجهجون الذي صاح فيه الناس الغوث... الأتراك تحاربوا مع الروس عندما كنت أنا طفلاً أتحارب مع أصابعي، والآن يتحاربون مع الإنكليز بأجسامنا نحن المشرفين على الموت جوعاً.

أعطاني عبد الرحمن الرمانة مرة أخرى، وقال:

- ما بك؟ لِمَ لم تأخذ مني التفاحة يوم أمس؟

- .....

- نحن قدرنا واحد. وأنا كالأخ بالنسبة لك.

- ظننتها رمانة؟

- ألم تر التفاح من قبل؟

- كلا لا أعرف ما هو؟

شممت التفاحة.. أخذتها منه.. لها رائحة طيبة وطعمها كالنبق الذي أردت الأكل منه فسقطت من يدي على الأرض وبدأتْ كوابيس العذاب... الأشجار كلها تصبح شجرة نبق خالية من عصافيرها، وجسمي يشتعل بالحمى ووجهي معفر بالتراب... صوتي كان يرتجف

منادياً الله أن ينقذني من هذا العذاب.. و أن يجنبني هذا الوحش المعلقة يمينه بمقبض حيائي.. ولكن هذا لم يحدث، فكيف لم يستطع إنقاذي من هذا العذاب؟ وماذا فعلت لكي لا ينقذني من هذا العذاب؟

لا تكف عني هذه الذكرى.. تلتف حول عنقي كالحبل الغليظ.. الحبل يطوقني في كل مكان، وستارة من الثقوب تحيطني كالرداء.. عرفت بأن ركضي مع توبة شرار النار كان هو الحجر الأخضر الذي يردم فوهة الماء الآسن من رأسي.. وهناك أيضاً ذلك اليوم العجيب الذي غرق فيه أخي هارون من أجلي وظهرت ريح قوية، وكادت آسيا أن تطير فيها.. لم أكن أفهم ما معنى الغرق، ألا انهم قالوا تخميناً بأن جسم هارون قد امتلأ بالجروح، وأن الاسماك أكلت كل جزء فيه.

سألني عبد الرحمن:

- من هو هذا الشخص المقعد الذي حملته ليلة أمس؟

- إنه صديقي ومعلمي توبة وقد ودعته للأبد.

- قد تلتقي الوجوه.

- لا أظن ذلك.

- .....

- ظننتك نائماً عندما جاء توبة.

- كنت صاحياً، وقد فككت الحبل عندما ظننتك تهم بالهروب.

- ألم يكن هناك حبل حول قدمي.

- كلا.

- كنت أشعر بملمسه؟

- لأنه التف على أرجلنا طويلاً حتى فقدنا الإحساس بغيابه.

كان هوشيار كبير الجندرمة وفرقته قد انشغلوا بشراء بعض التمر لنا قبل التحرك للرحيل، من بعيد كان هوشيار يقف بجسمه الضحم وملابسه

المزركشة ويضحك مع مساعده يزدان الذي جاء بعد قليل وأمرنا بالحركة.. لمّ الحبال في يده، ووضعها خلف سرج حصانه، وسرنا خلفه نغادر الرميثة، وهي المدينة التي انطلقت منها أول رصاصة معلنة اندلاع ثورة العشرين التي ستحدث بعد عامين على أثر اعتقال الشيخ شعلان أبو الجون شيخ الظوالم... صاح بنا يزدان مساعد هوشيار: سيروا أُجن أُجن، ولم أفهم ماذا يقصد، إلا أن عبد الرحمن قال لي إنه يقصد أن نسير على مهل.

- إلى أين نحن ذاهبون؟

- لا أدري.

- هل نحن نذهب إلى القفقاس في بلاد الروس.

- لا لا لا.. هذا حدث في زمان مضى.. نحن على الأغلب ذاهبون للمساعدة في حصار الكوت.

كان عبد الرحمن يلم كل عود جريد يراه في طريقه.. وعندما نصل إلى استراحة ما يحول العيدان إلى مروحة نذب بها عنا الذباب وحر الظهيرة... يتملكني العجب من مقدرات عبد الرحمن هناوي، فهو يستخرج من جعبته أشياء عجيبة ويضفر من الجريد بعض الصحون والعلب والأسورة، انتبه اليها يزدان نجدت معاون هوشيار المعنيّ بالميرة، فراح يأتي له بالأصباغ لكي يلونها ويبيعها في الأسواق.. فقد كان الناس تبيع حليها الذهبية في تلك الاعوام العجاف وتشتري بدلها الأسورة والخلاخيل الشبيهة بالذهب.

أعطاني عبد الرحمن حفنة من البذور كان قد استخرجها من بطيخة أكلناها في الطريق.. ضربتها بقبضتي وفلشتها إلى قطع متناثرة كما كان يفعل توبة، ثم التممنا عليها لنأكلها بينما احتفظ عبد الرحمن بالبذور، وعندما جفت تلك البذور، انتزع من بعض نبات الصبار صمغته، ومن الطين طفاله، ولصق قشورها فوق عيدان الرمان التي يلتقطها من الطريق ليصنع منها نماذج مصغرة من النخيل والأشجار. الصلاة كنا نصليها

قصراً وجمعاً طوال الطريق بعد تلك الواحة التي رأينا فيها توبة، ولكننا عندما وصلنا أطراف الناصرية توقفنا عن المشي، ونزعنا الأحذية الثقيلة وجلسنا.

الراحة جميلة.. والنهار طيب.. وأقدامي عارية تتنفس هواءً منعشاً بارداً فوق عشب طري لم تلمسه يد إنسان، والمكان فسيح تحيط به كلاب تركض وأطفال حفاة يلعبون بالحصى.. وتتخلله ريح عليلة هبت على وجهي وجففت حزني وعرقي، فانتعشتُ وضحكتُ للمرة الأولى منذ أن ودعت أمي على عتبة بابنا، بل و شعرت بالحب لهذا الربيع المحب الذي فتح لنا باب هذا الهواء العذب العليل... غير أن الباب انغلقت بعد قليل، وانفتحت باب أخرى ظهرت منها امرأة تتكئ على فخذها، وتمشي باتجاهنا.. وصلت بقربنا وسألت:

- أين تذهبون؟

- للكوت.

كان الفرسان من الجندرمة قد سبقونا قليلاً.. وبقينا نحن المشاة جالسين على الأرض لالتقاط أنفاسنا.. سقطت الدموع من عينيها، وقالت:

- من أي مكان جئتم؟

- من السماوة؟

- ابني أخذوه من زمان، ولم أسمع عنه شيئاً.

- هل ذهب أيضاً في درب السفر بر؟

نزلت دموعها مدراراً، وانهد حيلها جلوساً إلى الأرض، فراحت كفاها تجوسان في التراب، وكأنها تبحث عن أثر ما من ابنها الذي اختفى وتبخر.. وصلتْ مرحلة الهلاك من الحزن والتعب، فبصقت وقالت إن هذه الدنيا التي تتقاتلون من أجلها لا تساوي فلساً واحداً.. ثم راحت تصف لنا ابنها، وتقول بأنه فلعة القمر.. ويا ما ضحك ولعب وتمنى..

ويا ما رفس بطنها عندما حملت به، ورقص بالعصا عندما كبر، الآن هو لا يمتلك قلباً فكيف يضحك ويلعب؟.. بل كيف يدبك ويرقص بالعصا؟.. لم أظنه سيبتعد عني لأرض أخرى، فكيف يذهب تحت الأرض التي ستقفون عليها؟، وكيف سأحيا مع هذا الألم الذي لا يمكن التخلص منه إلا بالموت؟

من الواضح أنه لم يبق من هذا القمر سوى هذا الألم الرهيب، فهل هذه هي الدنيا؟ تفو عليها. بصقت المرأة مرة أخرى في الهواء على هذه الدنيا.. ثم تحول الربيع إلى ألف مخلب ينهش في القلب، و أصبحتُ أقلّب معنى ما قاله توبة قبل أيام عن الأشياء التي تذبل وتموت لأننا نموت. والصحيح أن الحرب التي يقتادوننا إليها هي التي جعلت كل شيء من حولنا يذبل ويموت.. أخذتنا الحرب سير وسريدة(*)، فغادرْنا المكان بأم غَشت وجهها الدموع، وابن ذهب في طريق لم يعد منه، فجاء اليوم الذي لا يضع رأسه فيه على الوسادة، وإنما فوق ثعبان أو عقرب أو كليهما.

دخلت المرأة التي تمنت الموت قبل قليل، والحليب ينز من صدرها لإرضاع رضيع جديد سمعنا صرخته تأتي من داخل الكوخ.. كانت تتحمل فراق ابنها الأول بإرضاع ابن آخر أخمد صراخه ثدي الأم.. سيتقلب ويتشقلب ويتدحرج، وقد تدركه الحرب فيخمد صراخه الثلج أو الوحل في مدينة بعيدة. بعض المواليد يأتون إلى الدنيا بأعوام الطوفان أو الهيضة أو الطاعون، فتحفظ لهم تلك النكبات تواريخ ميلادهم، وهذا المولود قد ولد في نكبة أخرى هي هذه الحرب التي وصلت نارها إلى الكوت.. لا توجد في الطريق سوى الكثبان والوديان ونقرة السلمان. ظهر الحزن علينا، وابتعدنا عن هذه المرأة صاحبة الابن المفقود والابن المولود.

الأحمداني لا يزال على قيد الحياة، يعني أنه لا يزال يعيد ترتيب الأفكار داخل مخلاته.

-25-

استعدت ما قاله لي توبة في واحة أعمامه قبل أيام:

- أريد أن أحدثكَ عن القادم من الأيام يا أحمداني.. إنها أيام ضياع وبؤس وعذاب. إنهم يأخذونكم إلى محرقة الحرب، وقد لا تعود لأمك وأختك، فحاول أن تهرب يا أحمداني.

- أنا فراشة ميتة يا توبة، والفراشة الميتة إذا أطلقتها للريح لا تطير.

- لم أعهدك بهذا الحزن يا ولدي.. لماذا تتمنى الموت؟

- بل اتمنى لو لم أولد.

- إذا شعرتَ يوماً بأن الأشياء من حولك تذوي وتتلف، فثق أن الذي يذبل ويتلف هو أنت، أما إذا وجدت الحياة زاهية جميلة، فذلك لأنك أسعد كائن على هذه الأرض.

- وكيف أكون أسعد كائن على الأرض؟ وأنا لم أعد اعرف ما هو الفرح؟

- أسعد لحظات حياتكِ كانت عندما كنتَ تركض، الركض هو الذي شفاني وشفاك من كل الآلام والمحن، فقد امتلكنا عشق الطريق، ومن يمتلك عشق الطريق لن يقف الحزن في طريقه، فلماذا أنت حزين يا أحمداني؟.

- لأني ذاهب للحرب، ولأنك مقعد يا توبة.. لأن شرار النار الذي

يتقافز كالغزلان قد نال منه غدر الزمان مثل كل شيء في هذه الدنيا التعيسة.

- وهل رأيتَني قد توقفتُ في منتصف الطريق؟ هل وجدتني يوماً متقاعساً عن الركض؟

- إذن كيف تكون نهايتك على هذه الشاكلة؟

- أنا حاولت أن أصعد على درج عاتي مشعل الفوانيس إلى شيء عال؟

- أي شيء هذا؟ قال الناس بأنك قد أُصبت في معركة الهدية؟

- لا لم أصب في معركة الهدية، ولا أستطيع إخبارك ما هو هذا الشيء، ولكني استطيع أن أقول لك بأنه وراء كل مقصد مقصد آخر.. وقد كان درجاً عالياً يؤدي إلى الإغماء. فما أن وضعت قدمي على سلمته الأولى حتى كلكل علي الجاثوم، وأغمى علي واعتراني الشلل. فتركت الولاية واختفيت في واحة أعمامي، لأني لم أشأ أن يراني أحد على هذه الصورة.

- أريدك أن تخبرني كيف تكون نهايتك على هذه الشاكلة.. لم تجبني يا توبة؟

- ألم أطلب منك أن لا تفكر أبداً بالنهايات؟، ألم أخبرك أن الذي يبدأ عليه أن لا يتوقف أبداً؟، ألم نقضي أبهج الأوقات في مطاردة القطار وجني الكمأ والتقاط فرائس الصقور؟. أجمل ما في الطريق هو بدايته، فحاول ان تعيش من الحياة بداياتها، وأن لا تفكر بالنهاية؟

- ها أنت تقول بأنك اختفيت من السماوة، بسبب حزنك على هذه النهاية.

- أنا كنت أنتظر أن تتحسن حالتي لكي أعود إليكم وأبدأ من جديد.. فأنظر كيف بدأت مرة أخرى هذا اليوم عندما رأيتك.. أنظر لسعادتي الآن وقرر هل هي بداية أم نهاية. وإذا قررت بأنها نهاية، فستكون هناك بداية غيرها بمجرد أن ننام ونستيقظ من النوم.

توبة شرار النار أخبرَني بكل هذا عندما التقيته مقعداً في واحة أعمامه التي توقفنا بها قبل أيام.. ولا أدري هل كان مؤمناً أم مواسياً بما بلغّني به قبل أن يودعني:

- هناك لحظة سعادة تنتظرك مع من يحبك، وهناك لحظة سعادة تنتظرك مع نفسك.. ويجب أن تشاء السعادة لكي تتحقق السعادة، وحتى إن عاندتك الظروف فعليك أن تكافح لكي تعود إليك السعادة.... ألا تتذكر الطريق الذي سرتَ فيه معي؟ ألم تته فيه ثم عثرت عليك؟ ألا تذكر القفار؟ ألم ترَ الكمأ ينبت في الأماكن البعيدة؟ أما طلبتُ منك الذهاب لقطفه، فخفتَ من الضياع، ولم تأمن وحشة الجرد المخيف، حتى شددتك بحبل طرفه الآخر في يدي. هذا الحبل يا أحمداني سيظل مشددوداً بيننا حتى وإن أخذتْني الأقدار منك. لأني إن ذهبت سيبقى مني أثر لا ينتهي، وهو نجاحك في عبوركل التجارب والمحن.

لقد سلمتك قيادي يا معلمي في تلك الوهاد المقفرة لأني كنت أخاف الضياع، ولا آمن لأحد سواك، ولكنك لم تعد معي يا قائدي.. ولا مع نفسك.. فقدتَ رجليك اللتين قدّمتا لي كل شيء بسخاء.. فكيف سأرد سعادتي معك؟ وأين هو الزمان الذي تركض فيه معي بعد الآن.. كنت تقول لي لا تخف، لأنك ستضيع إذا كنت تخاف من الضياع. وأنا اتذكر هذا دائماً، وأحفظه عن ظهر قلب..... ألا أني أتساءل أيضاً: وهل طريق الحرب يشبه طريق الحج، أو هل أن الذي يكافح من أجل العودة من طريق الحرب سالماً كما كان، سيتمكن من تحقيق ذلك بالفعل.. أفكر ليلاً ونهاراً، وأتساءل لو أنني ما كنت ولا صرت، أما كان هذا أفضل لي؟ ليس عذابي من ألم الظهر بسبب النوم على قارعة الأرض، ولا من البرد القارس وقت الليل، ولا حتى من فراق أمي وأهلي، ولكن لا طاقة لي على الشفاء من ذكرى تهزني كلما اغتسلت، ولا مقاساة عذاب آخر هو هذه النهاية التي رأيتك عليها يا أعز الناس.

سرت مع عبد الرحمن، رفيقي الجديد في عالم فارغ يملؤه هو

بالأحجار التي يرصفها إلى بعضها البعض في لوحات تصرعني بسحرها وغرابتها.. فبعد أن كان قد صنع المنمنات من بذور البطيخ والأسورة من الجريد، راح يرسم الصور بسحر يسميه الفسيفساء.. أيّ جزء من حجارة، أو كسرة من الزجاج يجدها في الطريق يضمها في جيبه، ثم عندما يجنّ الليل، ونستيقظ لصلاة الفجر يروح يرتب تلك القطع على قطعة قماش بالية مما يجده هنا أو هناك، ويقوم برصف تلك الأحجار حسب لونها وحجمها على شكل رسم يضاهي شكل الإنسان أو الحيوان أو الطير. بعض القطع كان يحتاج إلى صقل أو تصغير حسب حاجة الرسم، وبعد أن يطلب مني مساعدته في تشذيبها وصقلها يستعمل عصارة الصبار لإلصاق القطع مع بعضها البعض ضمن إطار الخرقة التي بين يديه. ثم يتركها لتجف تحت الشمس خلال مسيرنا واضعاً أياها فوق ذراعه. جعلت تلك القطع الجميلة عبد الرحمن أسعد كائن على الأرض.. كأنه كان يكتفي بها عن كل شيء من حوله.. كأنه كان يصنع صديقه بيديه. يكون هذا الصديق محاطاً بإطار من الزخارف مربعة ومدورة وغريبة الأهاب، فيصيبني الاندهاش، وأتساءل مع نفسي: كيف تحولت الحجارة إلى رسوم من الأمواج والطيور والأشجار.. محاطة بنقوش لا أفهمها.. كان مشدوداً إلى لوحاته بحيث ألهته عن مصاعب الدرب الذي نسير فيه، فينام فور أن يضع رأسه على الأرض القاسية منتظراً بزوغ الفجر لكي يبدأ عمله من جديد.. أنا كنت لا أستطيع حتى أن أتعبد بسبب وسواوسي، بينما عبد الرحمن كان مخلصاً لعمله وعبادته، فرأى العالم كله بين يديه مثلما رأى توبة العالم كله بين قدميه، وفي النهاية عندما وصلنا الديوانية وافترقنا هناك، بسط يديه ليحتضنني وهو يبكي.. قلت له:

- لماذا سنفترق؟

- هذه أوامر يزدان وهوشيار.

- أحببت أن نظل سوياً.

- وأنا أكثر منك يا أحمداني. الوقت قصير دائماً، فحاول أن تعوض

تقصيره بأفكار أخرى غير تلك التي تؤرقك وتقضّ مضجعك. كنت تتألم يا أحمداني طوال الليل، وكأن هناك وحوشاً تطاردك ولا تستطيع الهرب منها.. ولم أشأ أن أرسمك في لوحة حجرية مع تلك الوحوش الضارية من حولك..

- إنها تنال مني.

- عادة الخطأ عندما يحدث بحقنا من شخص ما، ونعجز عن الاقتصاص منه، سنكون على أهبة الاستعداد لتصحيحه مع شخص مخطيء آخر. صحيح أن الخاطئ الأول ينجو من العقاب، ألا أنه إما أن يتعلم الدرس فيتجنب الوقوع بالخطأ مرة أخرى، وإما أن يكرره فيقصم ظهره شخص آخر مر بتجربة ظالمة ينتظر تصحيحها... بهذه الطريقة يستمر اقتصاص الزمان من الجناة، ويتوقف اشمئزاز المظلوم من الحياة.. وإلا ما وجدت هارون كاد يموت لكي يحيا أخوه. بل هو لا زال يريد أن يفديه بروحه.

بهتُّ حتى وقف على رأسي الطير، وانحبست دموعي من هول المفاجأة، فوقفت مذهولاً عندما احتضنني و الدموع تنهمر من عينيه:

- هل أنت هارون أخي؟

- أنا كنت هاروناً عندما أنقذتك من الغرق، ثم أصبحت رحماناً عندما اضطربت ذاكرتي.

- كيف حدث ذلك؟

- أول مرة كانت في العيد الكبير، تهت عن يد أبينا وأنا أهرب من منظر كبش غارق في الدماء.. تركت الجوبة(*) وركضت بعيداً. ثم تعبت من الركض واستيقظت لا أعرف من أنا.. عثر علي راعٍ للأغنام وأسماني عبد الرحمن. وذات يوم سمعتك تصرخ وأنت توشكُ على الغرق قرب مقام الخضر.

خنقته العبرة عندما قال:

- كنت تصرخ.. أخ يابة.. أخ يابة. أخ يابة.

قلت له:

- وكيف سمعتني؟

- ألم تستنجد بي، ألم تصرخ أخ يابة، فمن يكون الأخ غيري أنا؟

- إذن كيف عرفتني الآن؟

- سمعتُ صرختك في منامك.. قلت أخ يابة.. فعصف بي صوتك مرة.. وذهب عني النسيان، وعاد هارون أخوك إلى الوجود.

ناداه هوشيار العريف لكي يلتحق بالفصيل الذي تحرّك باتجاه مختلف عن اتجاه سريتنا.. فهم بأمس الحاجة إليه لتركيب السقوف في بنكلة مطار حربي جديد سيقام وكرُه قريباً من ولاية بغداد.. والمطارات مع المحطات ستُبنى في أطراف المدن، قبل الحواف التي تملؤها المقابر.. ظل واقفاً لا يتحرك.. ينظر لي ساكناً غير محتاج لشيء سوى التملي بصورتي، قال لي إنْ ألمّت بك الملمات مرة أخرى فنادِني يا أحمداني، لعلي أجيء إليك مرة ثالثة.. سأفديك بروحي كما فديتك في يوم الغرق.

التفت إلي بعد أن تحرك مسافة قليلة، وقال لي مبتسماً ابتسامة عريضة:

- كيف حال الجدة زيتونة؟

- الجدة زيتونة فتحت عينيها ورأت السماء، قالت لنا إنها مضطرة للطيران لأن كل الأولاد الذين تحبهم لا يجدون عشاً مريحاً في هذه الدنيا، وإنها ترى عشاً آخر مبطناً بالقش وخالياً من الأشواك.

- أتمنى أن تصدقها.

- أنا لا أصدق أنّ هناك عشاً مريحاً في أي مكان..

لم أعرف بماذا أناديه.. بعبد الرحمن أم بهارون؟ فقط بقيت أنظر له فترة طويلة بعد أن ابتعد، وهو أيضاً كان يتلفت لي ويبتسم ابتسامة حملت

لي إحساسا عجيباً من الراحة والاطمئنان.. عبد الرحمن ذهب ليعمل في بنكلة المطار.. ولن أراه مرة أخرى لأن الحرب الكبرى ستستمر، ويصل الجنرال مود إلى بغداد وسينبهر ضباطه بصنعة عبد الرحمن، أو هارون أخي، فيأخذوه إلى الهند ليعمل مع جيشهم هناك.

بعد أن أصبحت وحدي، عادت لي وحشتي، فتذكرت صور نعيم، التي مررنا بها مرة أخرى بعد الخروج من حمام الحيدر خانة وقد تشبعنا انا وشرار النار بالبخار.. هناك في الاستوديو تقشرت الجامخانة(*) عن عشرة جنود ضاحكين ملتحقين بشتى صنوف العسكرية، خمسة منهم تُركت جثثهم فيما بعد وهي مغمورة بالثلج، وأربعة منهم دفنوا وهم أحياء بسبب الإعياء الشديد، وهناك رفيق خامس صوّره نعيم قبل أن يلتحق بصنفه، وقد نجا لاحقاً من الموت عندما اختبأ بين أكوام الأحجار، وجعل الأغصان فوق جسمه على شكل خيمة تقيه هطول الثلوج، ثم عاد إلى أهله بعد أعوام فلم يتعرف عليه أحد، بل ضُرب بالعصي لظنهم أنه لص أو رجل غريب. اتفقت زوجته مع ابنها على ضرب هذا الرجل الغريب الذي دخل الدار وهم نيام..... وفي منتصف الليل مات، وعلى وجهه الدموع... فهل قال الزمن كلمته معه منذ البداية، حتى قبل أن تضمه أمه إلى صدرها. فخاب حلمه، واستقبله أولاده بالسباب والضرب المبرح، لا بالعناق والقبلات. كل هذه النفوس الشائغة كانت محبوسة في الجامخانات.. الأوفياء منهم والموتى كمداً والنامكورية(*).

انفتح باب الخيال أيضاً على المطار الذي أخذ أخي هارون مني، وطار فوقه الحباري والخضيري والأوز والسمان والبيبي متو(*)، ثم مرت تلك الطيور على الأحجار المختلفة، وعيون الماء الجارية، والشجيرات الحولية والمعمرة، والأرانب المتكاثرة، والذئاب العاوية. والخرفان المساقة لمصيرها.. وراح يوم وجاء يوم فوصلت الطيور إلى ركنٍ ناء في شط العرب، فظهرت صورها تحوم فوق تماثيل الرجال الأشّارين بالسبابات على الجانب الآخر من الشط. ثم عادت مرة أخرى، مرة

أخرى، مرة أخرى، فكانت التماثيل قد سقطت في اليم الذي يجري بلا نهاية، ثم سقط بعدها تمثال آخر مسحوباً بدبابة أمريكية.. مرت السنوات بلمح البصر في هذه الأعوام الخمسين.. ومرت الأقدار على صاحب التمثال.. في العام 1978 علا نجمه، وفي العام 88 انتهت حربه، وفي العام 98 حوصر شعبه، وفي العام 2008 تقلب الناس مع تقلب الصور.

الطيور تتكرر، والصور تتغير.

-26-

عندما كان عمري ثلاثة أعوام خرجتْ أمي مع آسيا وخالتي نومية لجمع السِّعد والعرق سوس من ضفة نهر العطشان في منطقة مقام الخضر الواقع في الصوب الكبير على الجهة اليسرى من نهر الفرات، رأيت سمكة طافية على وجه الماء، ولأول مرة أرى سمكة تسبح في النهر بحيث تلمع تحت أشعة الشمس. سرت نحو السمكة حتى وجدتني أكاد أغرق بالماء، فرحت أصرخ بصوت عال، وراحت أمي تبكي وتلطم على رأسها، وصاح بي فتى جاء يركض من مكان بعيد:

- إرجع.. هيا ارجع.

لما عجزت عن الرجوع رمى ذاك الفتى نفسه في الماء وأنقذني.. دخل الماء وأخرجني قريباً من الشاطئ، لكنه لم يخرج..... صرخت أمي أنه أخي هارون، فلماذا وأين اختفى مرة أخرى بعد أن أنقذك من الغرق؟، استغرب الناس أن يكون أخي هارون، الذي ضاع في العيد الكبير، هو نفسه الذي قفز للنهر من أجل انقاذي، فأقسمت أمي أنه هو.. وراحت تبكي لأنه اختفى، فأين هو؟ بعض الناس قالوا إن ثعباناً متيناً التف حول رجله وسحبه إلى قاع الماء.. وقال بعض آخر بأن الأسماك قد أكلته وملأت جسمه بالجروح، وقال الأكثر من الناس إنه مشى على الماء ثم طار في الهواء، وفي النهاية اتفق الجميع على أن هارون اختفى مرة أخرى، ولكنه لم يمت، وعندما ظهر من جديد بعد شهور من حادثة

الغرق، أراده الناس أن يجاري زعمهم بأنه قد مشى على الماء، وأن هذه كرامة من كرامات الخضر عليه السلام..

كان ظهوره فرصة مؤاتية لكي يعيدوا رواية المشي على الماء، وأن لا يقتنعوا بأية رواية أخرى سواها، فظلوا يتبادلونها بينهم، ويضيفون إليها بكرم، بل لا يكفون عنها حتى بعد أن أخبرَنا هارون نفسه بأن التيار قد رماه على رمال الشاطئ الآخر للفرات، وتشوشت ذاكرته مرة أخرى، فعاد إلى جميل الراعي الذي تبناه.. ولولا أن سمع صوت القطار الذي يمر في السماوة للمرة الأولى، لما فز، وتذكر كل شي فعاد هاروناً مرة أخرى. الريح أنواع وأصناف، ومهما كان الطقس سيئاً فإن القطار يسير بسرعة ثابتة وبقوة أجهلها لا تبالي بشمس النهار ولا بألف نجم في سماء الليل. وفي يوم من الأيام تمدد توبة تحت القطار بحيث مرت كل العربات من فوقه وهو ممدد بين قضيبين، وشهد بذلك السائق والتيتي، وأصر سائق القطار على أنه رأى جسماً أسود اللون فوق القضبان مما يعني أن الطريق أمامه غير ممهد للعبور. طلب المساعد منه أن يتوقف لتلافي وقوع حادث خطير، لكن السائق لم يجد الوقت الكافي للفرملة، واكتفى بإطلاق صفير مدوٍ هب إليه جميع أطفال السماوة هبة واحدة، وكأنهم حمامات طارت استجابة لإشارة قائد الطيور.. الصفير العالي شيء مؤكد سمعه الجميع، غير أن ما رآه السائق ومساعده ليس مؤكداً.. واشتغلت تحليلات طويلة عريضة فيما إذا كان توبة بلحمه وشحمه قد تمدد فعلاً تحت القطار، أم أنه قد مدد ثوبه الأسود القديم الذي يريد التخلص منه. والناس كعادتها كانت تميل إلى الزعم الأول، لأنه أكثر إثارة للمتعة والتقوّلات، ولو كان يمت للحقيقة المملة بصلة، لما أيّدهما فيه اثنان ممن كانوا قريبين من القطار هما: المقصجي الذي يبدل اتجاهات قضبان القطار، وجميل هناوي الراعي الذي ربى هارون عندما تاه في البرية. صوت القطار ذاك هو الذي عصف بهارون وأعاد إليه ذاكرته بشكل مؤقت للمرة الثانية، فجاء يزورنا، وطلبتْ أمي ريحانة

منه أن يعود ليعيش بيننا، ولا ينسانا مرة أخرى، فقال إن روحه تستطيب ذلك، ومكث معنا عدة أيام، إلى أن جاءه خبر طارئ من بادية السلمان بأن جميل الراعي يبحث عنه، وسيموت نأياً وكمداً عليه. فودعنا هارون، ولم نره منذ ذلك الحين دون أن نفهم سبب تذبذب ذاكرته بهذه الطريقة العجيبة.. أصبح مثار أحاديث وقصص طويلة عريضة لا تنتهي، وأصرت الجدة زيتونة وربعُها من عجائز التنبلخانة على أن كرامات الخضر هي التي أعادت إليه ذاكرته مرة ثانية مثلما أعادتها في المرة الأولى، فهو خالد أبد الدهر، ومن كراماته أيضاً أنه يستطيع أن يتمشى حتى يصل السماء.

سألتُ أمي:

- إذن، هل الجدة زيتونة أيضاً تتمشى فيراها الخضر وينقذها.

- الجدة زيتونة ليست تحت الماء؟

- أين ذهبت يا أمي؟

- ذهبت تحت التراب.

- ألا تختنق بالتراب؟

- لديها نافذة صغيرة ترى من خلالها ضوء الله، وتسمع العصافير أيضاً عندما ترفرف وتزقزق.. وعصافير الجدة زيتونة ستظل ترافقنا وتحلق على الدوام، وستزقزق حولنا وحولها حتى وإن هلكت هي واندرست وتحولت الآن إلى طحين.

الجدة ارتدت ثوباً أبيض اللون في يوم ختاني ورقصت طرباً حتى فدفدت من التعب.. كنت أنا أبكي وأفرفح من الألم، وهي تغني و تطق الاصبعتين.. وظلت آسيا تنظر إليها فاغرة الفم فترةً طويلة. صحيح أنها تغار مني وتخنقني أحياناً، ولكنها لم ترض لي كل هذا البكاء المرير بسبب جلخ آخر ظنته من أعمال الجدة الشريرة التي شكت أذنها وكوتها بأبرة الخياطة الساخنة.. شعرتُ بأنها كانت تفكر بكل هذا إذ تحك شحمة أذنها وتواصل النظر إلى الجدة زيتونة التي انهدّ حيلها من الرقص

والتمرغل وطق الاصبعتين.. ظلت آسيا تنظر إليها، و تتمتم بصوت خفيض:

- قجمة عوبة ما عندك ظهر ما عندك شعر.. أم الدخان. أم بولة.

كلمات كلها تؤدي في النهاية إلى عمل واحد.. فما أن طلبت الجدة زيتونة من آسيا أن تأتي لكي ترقص معها حول الخروف وتهز حِقْوَها، حتى قالت لها:

- تفووووو عليك.

عصافير الجدة زيتونة كلها طارت دفعة واحدة بعد تلك البصقة، فأخرجت لسانها لآسيا، لتريها بأنها أكلت السمسم المداف بالدبس الأسود.. وأنها تذوقت حلوى السمسمية المعدة للأحمداني بمناسبة الختان. أصبحت آسيا في تلك اللحظة تبلغ الثمانين من العمر إزاء جدة مجنونة تتطوطح وتتصرف كالأطفال.. ولأنه لم ولن يتواجد خروف في بيتنا قبل وبعد ذلك، فقد أخذت تدور حوله وتغني طم طم طح.. طم طم طح.. إشطحْ اشطحْ.. فكان الشين يخرج من بين أسنانها السفلية الثلاثة على شكل صفير متقطع:

- إشطح إنطح. إشطح إنطح.

كان لها ما أرادت.. ونطحها الخروف برأسه. صرخت الجدة زيتونة التي سقطت على ظهرها أثناء خروج لسانها لإغاظة آسيا بلونه الجوزي، فقلدتها آسيا بأن أخرجت لسانها لآخره، فلما استطاعت النظر إليه، ووجدت لونه الوردي مختلفاً عن لون الدبس على لسان الجدة زيتونة الجوزي، قامت بإطلاق شتيمة جديدة لم نسمع بها من قبل:

- تفو عليك يا عوبة يا حنفيشة يا أم الجلافيط.

ضحكت مع نفسي بالرغم من التعب والألم.. وعرفت ما معنى أن تظل عصافير الجدة زيتونة تطير معي وحولي.. وأن استعيدها كلما ضامني الضيم.. كان أخي هارون قد ابتعد كثيراً وهو لا يزال ملتفتاً إليّ،

وبعد أن اختفى عن الأنظار جاء ضابط يعتمر قبعة اسمها الشنة، وصوت عصاه على الأرض له رنة.. أخذنا السلاملغ وركبنا الحراب على البنادق في وضع السنكي صاغ، وتلقينا الأوامر بالترحال إلى النار. عادت العصافير إلى أعشاشها، وأعادتني إلى حياة كاملة على السطح تحت سعفات النخيل.. كدت أن أسقط من آسيا وهي تحملني إلى فوهة التنور لأرى النار داخلها، غير أن قرطها هو الذي سقط، وتأخرت آسيا طويلاً أمام النار، وكادت أمي أن تنساني معها.. ثم جاءت، ومن بعدها العاصفة الترابية، فبلع الغربال كل شيء، وضاع ذاك الفتى الذي لا يعرف سوى الركض بين البوادي لجمع الكمأ أو فرائس الصقور، ثم انطفأت شموع الركض مع توبة، واختفت لوحات عبد الرحمن الحجرية، وشرعنا السير في دائرة مغلقة. تنتهي من حيث تبدأ، وتبدأ من حيث تنتهي. ليلاً ونهاراً، وصباحاً ومساءً.

أعرف مكان الجدة زيتونة لأنها ماتت، ومكان خالتي نومية لأنها لا تغادر جلستها قرب الحنفية، أما آسيا وأمي فتقفان في السطح دائماً أو بقرب التنور.... وقد حملتني آسيا إلى فوهة التنور.. لكي أرى دميتها في النار، ثم جاءت أمي وأخذتني من فوهة التنور إلى حضنها. وفي يوم آخر حدثت جلبة كبيرة بسبب هبوب العاصفة الترابية، وكنت مع خالتي نومية أجلس في الغربال قرب الحنفية، فصرخت بها أمي لكي تدخلني إلى البيت. أتذكر جيداً أن توبة رآني غداة ذلك اليوم، وطلب مني أن آخذ الليرة الذهبية من يده، وأضعها على سياج الملكة...

كل يوم جارتنا تحية أم ياسين، تنادي أمي، وتقول لها تعالي تعالي تعالي لنتحدث معاً عبر السياج، يحدث هذا أكثر من مرة في اليوم الواحد، ما عدا ذلك اليوم الذي ظهرت فيه ليرة من الذهب موضوعة فوق السياج، فلم تخرج جارتنا تحية ام ياسين، ولا نادت على أمي التي تسميها بالملكة لأنها تعدها جوهرة بين الخواتين... كان عمري أقل من ثلاث سنوات، ولم أفهم لماذا أعطاني توبة الليرة لكي أضعها على

السياج، إلى أن حدث اللقاء الأخير، ففهمت بأنه كان يخاف الأماكن المرتفعة، ولهذا لا يستطيع التسلق إلى السطح لكي يضع على سياج الفقيرة ليرة الذهب التي أخذها من قلادة الثرية. أما كيف أخذ تلك الليرة من جارتنا تحية فلا أعرف.. كما لا أعرف كيف استطاع طفل مثلي أن يحفظ سراً أراده توبة شرار النار أن لا ينكشف، ويبدو أن تحية أم ياسين قد تكتمت أيضاً على سر اختفاء ليرتها خوفاً من النميمة والقيل والقال، ومثل هذا الخوف هو الذي جعلها تتظاهر بأن الليرة لم تختفِ من قلادتها، بل هي التي تنازلت عنها، عندما همت أمي بإرجاعها إليها.

-27-

أتذكر أيضاً كيف شمّت جارتنا تحية رائحة المطر قبل أمي ريحانة عندما فاتَ شرار النار ماراً من الدروب.. أشرقت الشمس من خلف المطر، فرفعتْ وجهها كله إلى الجو، ولسعها هواء الربيع الذي يعج بطلع النخيل ومسحوق لقاح الزهور العالق بأجسام النحل، ولأول مرة طرحت تحية سؤالها عن قوس قزح كيف يظهر في السماء البعيدة، فأعلنت لها أمي ريحانة سر قوس قزح، وراحت تهدل بكلام جزل فصيح:

- قزح هو اسم المَلك الموكل بالسحاب، والقوس هو هدية السماء إلى المطر، فإذا أشرقت الشمس والدنيا ماطرة، اخترقت أشعتها قطرات الماء، واستدارت كخصر من الأصباغ حول الرذاذ، أو تحدبت كحدوة حصان متدرجة الألوان بين عروتين لا نراهما من قطرات المطر.

توبة إذا ما استمر تسكّعه في النياسم من الدروب، فلن تنجو العنادل التي تطير فوق السطوح، ولا تسلم حتى الحمائم الوديعة التي لا تقرأ ولا تكتب، ستهيم بإشارة واحدة من قدميه، وسيمكنها الاستغراق بالحلم وقت الربيع.. كان شرار النار يتنقل من قلب لقلب فيُمدد كل القلوب بأسباب البهجة والحبور.. تخيلته يصغر ويصغر ويصغر حتى أصبح حبة تائهة من حبوب الطلع.. وهذه الحبة راحت تتنقل على نسمة ناحلة من نسمات الربيع. إذا سقطت على وردة ستحتويها، وستقفل الوردة نفسها على تلك الحبة التائهة في الهواء..... وتنتشي روحها حتى تفوح منها

رائحة الرضا.. ستكون الرائحة مختلفة من وردة لأخرى، أما حبة الطلع التائهة فواحدة هي توبة شرار النار.

ما أن تطأ أقدامه جادة الدرب حتى تزهر كل روح حزينة، ويصيبها الانشراح.. ستظن أنه لا غاية توجد بعد هذه الغاية.. وأن احتضان حبة الطلع سعادة أبدية لا بداية لها ولا نهاية.. لا يهم بعد ذلك إن شعرت وردات العالم كلها بالبهجة نفسها واستغرقت بالحلم ذاته، لأن الحلم سيتنقل مثل خاتم زواج من اصبع لآخر، وسينقل مئة عشق وعشق إلى مئة قلب وقلب.. وحتى وإن كان المقصود بحبة الطلع هو قلب واحد، فإنها ستداوي القلوب كلها. وهذا هو سر الربيع.

أعجب كيف ردت أمي على جارتها تحية بذلك الكلام الجزل الفصيح عن قوس قزح، أو كيف تأتيني تلك الإشارات القريبة والبعيدة، أو من هذا الذي يبعث لي كل هذه الأفكار التي تحيط بي، وترافقني في مشواري هذا.. فمنذ أن كنت طفلاً صغيراً وأنا أرى القطار في الحلم يخرج البخار من سمت رأسه تدفعه الريح إلى الخلف، وكان هذا قبل أن أراه حقيقة يمشي على القضبان.. لا أفهم تعلقي هذا بأفكار وأحلام غريبة، إلى أن التقيت أحمد العوّام وحملتُه جريحاً بين ذراعي، فأقتربت نهاية قصتي، وأصبح معروفاً عندي كيف حصل كل هذا..

الزمن هو الشيء الذي يذهب ولا يرجع بعد الذهاب. وغداً سنصل الكوت مشياً على الأقدام. لا أدري ماذا نفعل هناك، أو لماذا يأخذوننا في هذا الطريق الوعر، وما هي الحرب وكيف تكون.. إنها كئيبة إلى درجة أريد البصق عليها كما تفعل آسيا مع الجدة زيتونة.. غداً لو أتى سأكون هناك تائهاً في كابوس جديد بدأ ولن ينتهي.

- استاريح.

- استاعد.

أما بعد غد بعيد فسأرى رئيساً يقتل البشر بالآلاف، ثم يشارك في مراسم العفو عن ديك رومي بمناسبة عيد الشكر. سوف يفلت ديك

رومي كل عام من تقديمه طبقًا رئيسيًا على مائدة عيد الشكر التقليدية التي تتضمن أيضاً عصير الكرانبري. يقول الرئيس في الاحتفال الذي يقام بهذه المناسبة:

- يسرني أن أقول إن هذا الديك، وعلى عكس الملايين من الديوك الرومية الأخرى في هذا الوقت من العام، أمامه مستقبل مشرق.

كانت هذه الصورة، التي فاجأتني في الطريق إلى الكوت، أكثر مرارة وأشد سوءاً من الطنطل وأبو دندح و گصاص البطون. مع ذلك فقد ضحك الرئيس ومعه الإنسان لهذا المستقبل المشرق!

-28-

تساءل الجميع لماذا اهتم توبة بي إلى هذه الدرجة، وعلمني كيف أبزه في الركض السريع؟ وكنت أعرف أنه لا يمكن لأحد ما أن يتجاوزه، إلا إذا أراد هو ذلك بالفعل. كان يختبئ بين الاشجار، فأظل أركض ظناً مني أنه قد سبقني بمسافات بعيدة، وعندما ينقطع نفسي من التعب يظهر خلفي ليجعلني أعتقد بأني قد فزت عليه.. كان يظن بأني لا أعرف، ويصر على كوني الفائز عليه، لكي يجعلني أزهو بفألي وتوفيقي فيكون حسن ظني بنفسي باباً لحسن ظن الناس بي.

أردت أن أرد له دينه بأن أجعله يظن نفسه فائزاً علي عندما يتعب ويتقدم به السن، إلا أن ذلك لم يحدث، لأنه اختفى قبل أن يتسنى لي ذلك، فبقيت أحلم بأن أتراهن مع توبة وننطلق في الوقت نفسه في طريقين مختلفين إلى القرنة وهي نقطة التقاء دجلة بالفرات، وعندما يبدأ السباق وننطلق، يصل توبة الى النقطة المقصودة معتقداً أنه قد خسر الرهان، ثم يتفاجأ بوصولي خلفه بعد قليل مبتسماً..... هذه بتلك.

يتتبع توبة، حركة نموي، منذ الولادة، وحتى عمر الفتوة، وكأنه بوصفه عداءً يرقبني ملياً، ليعثر على ضالته.. وما هي ضالته سوى رفيق آخر غير كلبته براقش التي وضعت رأسها بين قائمتيها وغطت في نومها الأبدي.. أمي ريحانة كانت تعاني الشعور بالكدر من اهتمامه بي، في البداية فقط، ثم وجدت ابنها، الذي يتهته في الكلام، وقد صار سعيداً في عالم الأرض

الفسيحة الأرجاء، متحرراً من عالمها الذي لا يوجد فيه سوى تنور الخبز وإبرة الخياطة مع نول الحياكة.. وجدتْ بأنني يجب أن أنطلق إلى العالم المرهق بأثقاله الجسام مع شخص موثوق، وبالتالي أستطيع أن أواجه حتى الجحيم إذا ما أعيتني الحيلة، أو جاءت أيام سوداء كتلك التي جمع فيها الاتراك القمح بالقوة، ثم حفظوه في مستودعات الميرة لقوت جنودهم.. السماء انحبست، والأرض أجدبت، والأمراض انتشرت، وكان ذلك العام شبيهاً بعام الجهجهون.

وجدتْ أمي أن توبة يهديني السعادة والقوة مقابل أن يبحث عن الخلاص من مأزقه في أن يتجاوز نفسه هو بالذات، ويرى أفقاً غير المضايف والدلال والحصران للوصول إلى مديات بعيدة يستصرخ فراغها همته. بدأتْ الفكرة بطريق تجري فيه الريح، ويُغري على الركض فيه بحرية وانطلاق، وأنا الآن أسير هذه الفكرة التي تنتقل بي من طريق إلى آخر، دون أن أعرف الغاية منها، ولماذا أنا حبيسها، أو لا أستطيع التحرر من فصولها المتعاقبة. كان توبة قد سألني مرة:

- لماذا أنت حزين يا أحمداني؟

- أشعر باني أُضيّع الوقت..

- أي وقت؟ هل يوجد لدينا وأمامنا أكثر من الوقت.

- أنت طبعاً لا تعرف الساعة، ولا تدري ما هو الوقت.. فقط تعرف مشرق الشمس ومغربها، وأن الجدة زيتونة هي التي جاءت بنا إلى العالم..

- وكانت تقيس أعمارنا بأعمار الأشجار، فتقول مثلاً أن الأحمداني قد ولد عندما كانت شجرة القلم طوز قد تضاعف طولها في بيتكم، وأصبحت أعلى من نخلة بيت أبو ياسين. والشَعر أيضاً يمكنه قياس الوقت عندما يطول.

- فأنظر أين أصبح شعري وأنا أركض.

- ها ها ها.. إذن الوقت طويل جداً. فلماذا القلق من ضياعه.

- قلبي حزين رغماً عني يا توبة، إنه كالثوب الأسود لا يوجد فيه لون زاه واحد.

- تأكد بأنه لن يقدر على إدخال السرور إلى قلوبنا سوى الطريق.. وبعد أيام سيبدأ موسم الصيد ويأتي الصقارون من الخليج. وسنغرق بالهدايا والأموال.

يستعين بنا الصقارون أحياناً لجلب الطرائد البعيدة من مناقير الصقور، وتعرفت عن طريقهم على عدة الصقارين، وأدوات تدريبهم للصقور على الصيد، إذ يحتاج الصقار إلى مخلاة من القماش الأبيض مصنوع من القطن، له حمالة من نفس نوع القماش، ثم خيط رفيع لربط أرجل الطير. وهناك خيط آخر يسمى المرسل لإحكام القبض على الطير. ثم الوكر، وهو قائم خشبي مخروطي الشكل يمكث عليه الصقر. وهناك جناح حبارى كبير مربوط بحبل طويل، يُستدرج به الصقر للطيران خلفه. أما البرقع فهو غطاء يوضع على رأس الصقر ليحجب الضوء وبعض المشاهد عن عينيه.

وضع أحد الصقارين الدرع الواقي من مخالب الصقر على يدي، وجعل الصقر يقف عليها، وحدثني عن تحليل قدرات صقره وميزاته، فمن الصقور ما يتعلم مهاجمة الطرائد في الجو، أو يتعلم مناورتها أثناء التحليق والطيران، أو يتعلم كيف يجهد طريدته في الجو، أو كيف يتحين الفرصة لاقتناصها من أعلى إلى أسفل، أو الانقضاض على الطريدة وهي على الأرض. غير أن توبة لا يريدني أن أتوقف لتعلم شيء يعولني، ويحثني على الركض لأن الله هو الذي يُعيلنا، وسنعثر على رزقنا في كل مكان.. توبة كان يعمل بقدميه لا برأسه، وتعوّد أن ينام على وسادته مستريحاً، ثم يستيقظ متهلل النفس وتفيض البشاشة من وجهه... عجبت من ذلك الحبور، وسألته متعجباً عن السر، فقال لي لا تعجب يا أحمداني، فأنا أضع رأسي على وسادة خالقي الذي لا يحررني من أحزاني سواه..

وعندما استيقظ لا أمشي في الحياة بمفردي.. وإنما يجب أن أعثر على رفيق محب يسندني أثناء المسير.. فتذكر دائماً أن تعثر على الرفيق قبل الطريق.

عندما غادرنا تلك المرأة التي كان الحليب ينز من صدرها إلى ثوبها، لم أجد من ينتزع الحزن من صدري سوى عبد الرحمن رفيقي الجديد الذي قال لي بأنه سينجدني عند الضيق، ولكنه لم يرد على سؤالي.. ينام على خرزات ظهره مستريحاً في الليل، وعقله عاجز عن الإجابة عن أي سؤال، بل لم يكن مستريحاً لأي سؤال حتى لو كان يعرف الإجابة عليه.. هذه مسائل خطرة يجب أن يخاف منها كل إنسان، ويتحاشاها بالاختفاء خلف شيء ما، وعبد الرحمن كان يختفي خلف عمله الذي يمارسه بيديه. وتوبة شرار النار كان يختفي خلف حركة قدميه. فعرفت أن سعادة النفس تكون بالاختفاء، والهرب من كل سؤال مزعج يقض مضجعها..... هذا هو الحجر الأخضر الذي يجعل العيش محتملاً، والحياة ممكنة. فيا لها من حياة مزورة.

جربت ما جربت من أجل سعادة نفسي، ولم أعثر عليها، حتى التقيت سائس المعسكر أحمد العوّام. الذي كان يحول كل ما رآه في حياته إلى حِكَم يعتبر بها، ومعه أوتيت سؤالي عندما وصلنا الكوت، فأخذني معه لكي أعمل في الإسطبل أغسل الخيل وأدربها وما الى ذلك من أمور السائسين، ولما عرف بسرعتي في الركض، قال بأنه يريد عرضي أمام القائد التركي الذي جاء ليتفقد بعض أمور الجيش..

ذلك القائد هو سليمان باشا.

-29-

سألت العوام لماذا أخذونا للتجنيد؟ لماذا هذه الحرب؟ لماذا لن يكون لأمي ابن بعد الآن.

- هذه هي المصيبة في كل حرب.. إذا ذهبت إليها فلن تعود منها إلى أمك إلا وقد اصطفتها أو اصطفتك التربان. أنا سافرت عبر البراري والقفار إلى قفقاسيا، عندما أُعلن النفير العام عام 1913، فألصقت على مداخل الأسواق وأبواب المقاهي والمحلات ودوائر القشلة في السراي صورة بندقيتين متعانقتين كتب تحتها (هناك نفير عام للسفر برلك كونوا على استعداد تام مع اسلحتكم)، وهذا كان يعني أن هناك تجنيداً اجبارياً يساق الخاضعون له إلى قفقاسيا حيث وقفت الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، واصطفت معها ضد بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا وباقي الحلفاء في الطرف الثاني.

انقلبت الدنيا بين ليلة وضحاها، وكان مَن لم يمتلك البدل النقدي من الشباب يهرب من الخدمة العسكرية من سطح إلى سطح ومن زقاق إلى آخر، فطافت الجندرمة العثمانية تبحث عنا وتلاحقنا، وقبضت على الكثير منا، ثم قامت بتجميعنا وسط ساحة القشلة. وفي ليلة دهماء من شهر آب اللهاب جاء الآباء والأمهات يبحثون عن ابنائهم في الظلام، وبسبب انعدام الرؤية كانوا يشعلون عيدان الشخاط ليروا وجوه أبنائهم، ولهذا سمي طابور المنتظرين بطابور أبو شخاطة، وتوقعتُ أني سارى أمي لآخر مرة في طابور الشخاط.

- وهل جاءت؟

- نعم جاءت، وودعت ابنها الذي سيهلك برداً وعطشاً وجوعاً.. كانت شابة فذهب شبابها وتحولت إلى سيدة عجوز، وكأنني لم أعرفها قط قبل تلك الليلة التي كانت آخر ليالي شهر رمضان، ولا يصح أن نحزن في ليلة العيد، ألا أن العيد كان كذوباً هو الآخر..

- ما أصعب أن يكون العيد كذوبا؟ فأيام العيد تجلب كل السرور، بحيث كنت أريد العيد أن يحل كل يوم، فتقول لي أمي ريحانة لو جاء العيد كل يوم فلن نعرف ما هو العيد.

- نعم جاء ومضى في ليلة ظلماء، وفي اليوم التالي توجهنا نحن الجنود الى محطة القطار التي تقلنا إلى سامراء، لأن سكة الحديد كانت تبدأ من بغداد وتنتهي هناك، بعدها ترجلنا وذهبنا سيراً على الأقدام من سامراء إلى الحدود. و زُوّد كل جندي بخمسين اطلاقة يضعها في سير رصاص من الجلد مزود بجيوب توضع فيها الاطلاقات. وكان الضابط يمتطي الجواد وكذلك الإمام الذي يصلي بالجنود. أما الباقون فكانوا يقطعون المسافات الشاسعة سيراً على الأقدام ومن ضمنهم (الجاووش) أي العريف. كانت ميرتهم الخبز اليابس والبصل، وطريقهم يشمل صعود الجبال والسير في الوديان، حتى دخل الجيش الأراضي الروسية، ونزلت الثلوج فغطت الأرض، والتقى جيشنا الصاعد بجيش كان على خطوط التماس وهو عائد مخذول، وقد خسر معركة خاضها ضد الروس، غير أن قادته لم يفصحوا عن الخسارة لكي لا يرهبوا جيشنا القادم من بغداد... كان موعد المعركة قريباً، وبُلغ الجنود بأنهم على خطوط التماس، وعليهم أن يحفروا الخنادق ويضعوا المدافع خلف المشاة فهوّست أنا أُشجّع الجنود.، وأنادي بصوتي الجمهوري:

يابو بكر يا شديد الباس

فاروقنا يرعى العدا كرداس

عثمان لو صار الحرب لا باس
لكن علي تشهد له الكفار

- هل في الحرب متسع للأهازيج والهوسات؟

- عندما تقوم الحرب إما أن تبالي بها، أو أن تطمس بالخراء فلا تبالي بشيء، وحتى لو هبتَ صوت البنادق والمدافع، وحاولت الهروب خوفاً، فسيسحب الضابط طبنجته ويقتلك، فيجعل ذلك الجميع يهابون مثل هذه النهاية.

- واستمرت الحرب؟

- أيّ حرب تتحدّث عنها يا أحمداني؟ أنت لم تدخل معركةً واحدةً بعد. وعندما تفكر بالحرب يجب أن تقوم الحرب لكي تعرف ما هي الحرب، فقد كنا نُأمر بحفر القبور للجرحى قبل أن يموتوا أو يفكروا ما هي الحرب، أو لماذا يموتون من أجلها. الحرب تشغلك عن نفسك فتصبح كالمأخوذ لا تعمل شيئاً سوى تنفيذ الأوامر.. وهذه الأوامر لا تفكر بها، أو تتساءل عن معناها، فداخل سورة هذه الرياح الشديدة، لن تكون أنت جزءاً من نفسك أو أهلك أو حياتك، بل تكون ريشة تلعب بها الريح حتى تنتهي لعبتها.

- وهل انتهت اللعبة؟

- إن قلنا انتهت تبدأ مرة أخرى، فهم لم يكونوا يفترون ينقلونا من جبهة لأخرى. وقد اشتبك الجيش العثماني ثلاث مرات مع جيش روسيا القيصرية، وفي المرة الثالثة أُمر الجيش بالانسحاب ليلاً، لأنهم توقعوا أنْ يطوّقنا الجيش الروسي. وعندما أشرقت الشمس كنت أنا تائهاً وبعيداً عن أرض المعركة. كيف حدث هذا؟ لا أدري.. أصبحت لا أستطيع الاستتار خلف شيء في دنيا باهتة البياض.. وبدون أن أعرف حتى حدود المكان الذي أقف فيه بسبب الجليد، وجدت نفسي فوق نهر متجمد، فكان خير جسر لجندي ليس معه من الأرزاق سوى صمونة يابسة كسرتها بأخمص البندقية، ثم بدأت أنوح على نفسي، فأنشدت ما قاله حائك من بغداد:

جلجل علينا الوفر شبه المحيط جبال

ناديت يا خالقي شنها السقم بجبال؟

كنت أتمرغل في التيه.. وأطمس في الجليد بدل الخراء.. فتمنيت الموت من شدة الجوع والبرد الأكثر برداً من أي برد عرفته في حياتي، بحيث ساورتني الشكوك بأني قد تحولت إلى كومة عظام مثلجة لا يحميها أي شحم ولحم.. حياتي وغايتها وأكذوبة الدفاع عنها تطشرت حول ينبوع الدماء الذي تفجر من أجل حرب بين الأتراك والروس. لا ندري ما هي القضية، ولماذا نساق كالشياه التي تذبح في العيد، وعندما جعلونا نحفر بمجارفنا الحفر الكبيرة ليدفن الجنود فيها وهم أحياء يئنون من الجراح، لم يعد أنفي يشم رائحة الطعام أبداً.

- فماذا فعلت؟

- لم أفعل شيئاً، ولكن الروس هم الذين فعلوا، فأسروني بعد أن جُرحت، وعالجوني وراحوا ينادونني بأخميدو.. وقبل أن تنتهي الحرب بادلوننا بأسرى من الجنود الروس، وبدلاً من أن يعيدنا العصمليون إلى أهالينا، نقلونا إلى جبهة أخرى.

- - فهل رأيت أمك مرة اخرى؟

- أخذ بعض الجنود يعودون الى أوطانهم، باستثناء الذي هلكوا في القفقاس أثناء المعارك، فمنهم من وجد أفراد عائلته على قيد الحياة، ومنهم من لم يجد أحداً يستقبله أو يرحب به،أما أنا فقد زرت أمي في مقابر الشيخ معروف، وتناهى إلى أذني صوتها تضرب صدرها وتهزج مستنهضة ما سبقنا من الرجال إلى التراب: «كوموا يا ولد معروف.. ساگ أولادنا العصملي للمسقوف».

- قل لي يا عوّام ألسنا نضيع الوقت بالحروب؟ أليست الحياة كلها مضيعة للوقت..

- ليس كل ما نفكر به يجب أن نقوله.. وأولئك الذين تستغرقهم

الأفكار حول معنى الحياة سيعيشون صامتين كالدروايش، أما أولئك الذين لا يفكرون بمعنى أي شيء مما يعملون، فسيجعلون شواربهم متدلية، وملامحهم مدلهمة، وقد يصبحون كالوحوش بل أشد بأساً، أما رأيتَ الكثير من الصور الفوتوغرافية التي التقطها المصورون الحربيون عن معارك البصرة والأهوار والناصرية؟ أما رأيت صورة القائد البريطاني طاوزند ينظر كالصقر من سطح داره إلى خنادق العثمانيين المحيطة بمدينة الكوت، بينما لأسير هندي صورة مزرية تبدو فيها ضلوع صدره ناتئة من شدة الهزال.... كل الصور تجعل القادة في وضع الأسُود والجند في وضع الكلاب.. لقد أصبحت عيون كل الجنود منتفخة، وافخذاهم رفيعة جداً من الجوع، فشرعوا يتعقبون أي شيء يتحرك على الأرض، فيأكلونه بعد قليه بزيت المحركات على نار موقدة من أي وتد يشعلونه حتى صلبان المقابر. ثم راحوا يأكلون الكلاب والقطط حتى نفدت تماماً، ولم ينجُ منها سوى كلاب القائد طاونزند.

-30-

عرض البريطانيون مليوني جنيه استرليني على الأتراك، ووعدوا أن لن يقاتلوهم مقابل ذلك.. رفض الأتراك ذلك العرض واستمروا في حصار قوات طاوزند، وكان ذلك الحصار آخر نصر يسجله العثمانيون بعد الهزيمة التي مُنيوا بها في معركة الشعيبة، وسقوط البصرة نتيجة لسوء قيادة الوالي سليمان باشا.. جاءتنا الأخبار بأن سليمان باشا قد انتحر، ومتصرف العمارة قد سلّم نفسه، والجيوش البريطانية تتجه نحونا إلى الكوت. قال لي أحمد العوام ستدركنا الحرب مرة أخرى، فلنحاول الهروب سوياً.. أنا في الليل استحضرت توبة شرار النار الذي علمني أن سرعة الجري لا تكون إلا عندما نركض هرباً من خطر مميت.. قال لي اركض وكأنك تريد الهرب من ذئب مسعور، أو أسد هصور، فعندها فقط ستجد نفسك أسرع من كل الوحوش الكاسرة. فكيف إذا كان هذا الوحش الكاسر هو الحرب نفسها؟

اتفق معي العوام على أن نستيقظ قبل صلاة الفجر، ويمتطي هو حصاناً، وأنهب أنا الأرض عدواً باتجاه بغداد أو أي اتجاه مغاير للجنوب. تذكرت رهاناً بيني وبين توبة شرار النار، هو يجري ممتطياً الفرس، وأنا أركض على قدمي.. ولكي يعرف الاتجاهات قام بغرس فرع شجرة في الأرض بحيث يلقي ظلاً ظاهراً، ثم علّم نهاية الظل بحجر، وقال لي يجب أن تذهب إلى الرميثة وتعود في المدة التي يتحرك فيها الظل مسافة قليلة. عندما عدت من الرميثة علّم الموقع الجديد لنهاية الظل مثلما فعل

أولاً، ثم رسم خطاً مستقيماً بين العلامتين اللتين أحدثهما الظل. كان ذلك الخط الذي رسمه هو الخط الواصل بين الشرق والغرب، طالما أن الشمس تشرق من الشرق وتغيب من الغرب دائماً، فإن نهاية الظل تتحرك في الاتجاه المقابل، لذا فعلامة نهاية الظل الأول التي علّمها تشير إلى الغرب دائماً.. عرفت أن توبة يريد أن يعلمني كيفية الاستدلال على الاتجاهات ومعرفة الشرق من الغرب عندما أكون بلا دلالات، أما العوام فقال سنستدل على الاتجاهات من قبور المسلمين، إذا شاهدت قبراً في المنطقة الوسطى والشرقية، فتستطيع أن تستدل منه على الاتجاه الجنوبي الغربي، لأن الشواهد كلها تتجه نحو الكعبة المشرفة في مكة.

قال العوّام إن قوات طاوزند جنوبنا، ومدينة مهران شرقنا، فلماذا لا نتجه غرباً نحو القرى القريبة من الحلة.. وفعلاً استيقظنا قبل صلاة الفجر، وانطلقنا باتجاه الحلة التي كانت تبدو قريبة، وتوجهنا نحوها نزولاً، بحيث هممنا بالطريق الآمن الذي سلكناه، وكأنه كل غايتنا في هذه الحياة.. ولأن البصر قد خدعنا، فلم نصل إلا عصراً، وعندما وصلنا حدث شيء غريب آخر وهو أننا لم نعد نسمع أصوات الأذان.. السماء غير السماء والأرض غير الأرض.. وانتابنا شعور غريب بأننا ضعنا.

- أين نحن؟

لم نكن نعلم بأنا قد دخلنا منطقة خطرة، فلما وقفنا نصلي أُلقي القبض علينا من قبل رجال الكركة الذين يرتدون العمائم، واخذونا إلى معسكر آخر شرق المعسكر الذي كنا فيه.. كان المعسكر متروكاً للكلاب تبحث عن القوت بين جنباته، و لم يجدوا جيشهم في ذلك المعسكر.. سألوا أحد القرويين عن اسم المدينة، فقال لهم إنها سلمان باك، وإن جيشهم قد توجه إلى الكوت قبل يومين. كان عدد الكركة عشرة يحملون بنادقهم وعتادهم، فقرروا اللحاق بالجيش، والتوجه مرة أخرى نحو الكوت. ولم يشعروا بأنهم راحوا يتجهون شمالاً وفقاً لشواهد قبور خلق الله من المسلمين التي صادفتنا على الطريق، وبعد فترة من التيه تعبوا وناموا، إذ

عندما وصلنا بناية مهجورة، وضعوا الخيل خارجها، ووضعونا خلف بابها بدون قيود. استيقظنا الفجر، فكانوا نائمين نومة أهل الكهف.. قال العوام:

- يا رب سترك في هذا فجرك..

وراح يزحف باتجاه الخيول النائمة، وأوعز بلغة الأحصنة التي يعرفها جيداً إلى أحدها بالقدوم.. قلت له أنا سأركض.. لا داعي للحصان، ورأيت نفسي أركض مع رفيق جديد.. أهيم بالعالم لكي أعرف ماذا يفعل الإنسان في الحرب.. وكيف يتصرف طلباً للحياة.. أنا أستطيع أن أرى رفيقي العوام قد كابد ما كابد، ومع ذلك يواصل الركض على الحصان أملاً بخيط من الحياة يقبض عليه. أو أن يعود إلى مسقط رأسه.. كأنه قد أذنب سلفاً في هذه الحياة، وعليه تحمل نتيجة ذنبه بهذا العقاب... بعد مسيرة قليلة وصلنا إلى مرتفع من الأرض شاهدنا فيه من بعيد جنوداً يركبون الخيل، وقد لبسوا ملابس الغزو، فقلت للعوام:

- هذا جيشنا.

- - هذا ليس جيشنا، إنها سرية هندية لأن جيشنا لا يلبس العمائم.

- ما العمل؟ هل نسلم أنفسنا؟

- لهؤلاء يعبثوا برؤوسنا بحرابهم لا والله لن يكون هذا..

العوام الهارب من جيشه راح يكبّر فجأة:

- الله أكبر. الله أكبر.. الله أكبر.

قلت له:

- ماذا تفعل، لماذا تكبّر بصوت عال، اسكت يا عوام.

لكنه ظل يصرخ بشكل جنوني:

- الله أكبر. الله أكبر

- نحن على قلة وبدون سلاح؟. إخفض صوتك يا عوام؟

فقال لي: سنختفي خلف الصخور ونحاربهم من هناك، ثم هلل وكبّر

مرة أخرى، فتنبهوا لوجودنا، وأُطلقت البنادق باتجاهنا مرة واحدة، وصرنا داخل حومة من النار. صرخت به مرة أخرى:

- ماذا فعلت يا عوام؟.. لماذا نبهتهم لوجودنا؟

ازداد زخ الرصاص في اتجاه واحد، وفوجئت بسقوط عدد من جنود السرية الهندية من على ظهور خيولهم، وترجل الباقون مستسلمين. لم أعرف كيف حدث هذا للهنود، ولماذا انتهى أمرهم بهذا الشكل، إلى أن ظهر فجأة جاووش عثماني مع مجموعة جنود طلب من أحدهم، وكان بدوياً، أن يجمع سلاح الهنود الذين انتهى أجلهم، ففهمت بأني نجوت مع العوام بسبب النجدة العثمانية التي جاءت من خلفنا.. وعرفت بأن العوام قد لمح رسم الهلال على أعلام تلك القوة العثمانية من بعيد، فصاح صيحة الله أكبر، ونحن خلف الصخور، لكي ينبه تلك القوة إلى وجود مسلمين يستنجدون بهم.

انطلقت صيحات الله أكبر مجلجلة لتلك المعجزة التي حدثت قبل قليل، سأل العوام الجاووش: أين نحن؟، فقال: لاباس عليكم، إنكم في الطريق المعاكس للكوت، وكنتم تتجهون نحو بغداد، ألا ترون منارة سوق الغزل بادية من صوب الرصافة ومن خلفها أجراس كنيسة اللاتين؟.. فما عليكم إلا أن تعودوا من هذا الطريق معنا. هل أنتم جند تائهون في الطريق؟ سألونا، فأجاب العوام بطريقة مموهة لا تودي بنا إلى الهلاك:

- لا أحد يتيه عن طريق الحرب عند قيام الحرب.

نظرت إلى العوام لأرى ماذا سنفعل ونحن عدنا إلى طريق الكوت لنصير داخل هذه الحرب مرة اخرى؟ قال لي، وهو ميت من التعب، وماذا سنفعل خارجها؟ إن الحرب كالأفلاك تراقبنا وترصدنا في كل مكان.. وهي تلعب لعبتها معنا، فلنرَ ما هي فاعلة بنا. وبدأنا مسيرة العودة معهم سعياً على الاقدام من بغداد إلى الكوت. كان الجاووش قد أدرك بأنا هاربين من الحرب، فأضمرها في نفسه، وتركنا نعاني من الجوع ثلاثة

أيام. كانت الصخور هي سيدة الموقف، لا تمنحنا سوى المزيد من التعب والغضب، وتجعلنا نبحث بينها عن عشبة أو ورقة خضراء.. تبدو هيئة الجاووش هادئة، ألا أن غايته المضمرة تخالف هذا الهدوء الذي يبدو عليه. لم يشعر العوام بما شعرت به أنا.. فقد حل عليه استسلام غريب، وراح يروي لي حكاية من حكايات عودته إلى بغداد من قفقاسيا... قال لي إنه قد دخل جائعاً بيتاً من بيوت الموصل، وكانت المجاعة قد محقت الأرض وما فيها، فقدم أهل البيت لهم عدة صحون مملؤة بالليرات، فأدرك أن الطعام هناك أصبح أغلى من الذهب. ولا يوجد لدى أهل ذلك البيت طعام، فخرج هو وجماعته من البيت ولم يأخذوا شيئاً من الليرات. وكان العديد قد خارت قواهم، و لم يستطيعوا اللحاق بهم:

- تركناهم خلفنا يتضورون جوعاً، ويزحفون على الأرض. هذه هي الحرب يا أحمداني.

كأنه أكد لي بقصته تلك بأن كل جندي هو مذنب في هذه الحياة، وعليه تحمل نتيجة ذنبه بهذا النوع القاسي من العقاب... وصلنا المعسكر فكانت القوات البريطانية قد بلغت الكوت زاحفة من البصرة، وبدأت كل المدافع تصب نيرانها على منطقة لا تتجاوز أربعة أميال، فعرفنا أنه اشتباك وتراشق مدفعي بين القوات العثمانية والقوات البريطانية، وأن القائد العثماني نور الدين قرر الانسحاب عامداً إلى إخلاء الكوت من القوات العثمانية، فتدخلها القوات البريطانية في اليوم نفسه. أكلت القوات البريطانية الطعم، وأصبحت قوات القائد التركي نور الدين تطوق المدينة، وحاصرت قرابة أثنى عشر ألف جندي بريطاني هناك.. و قبل أن يبدأ قصفه المدفعي على المدينة، كان قد كتب إلى القائد البريطاني طاونزند رسالة يدعوه فيها للاستسلام، فشكر طاونزند نور الدين على دعوته، وانتهى كل أمل لوقف الحرب، ولم تبق سوى صيحة نور الدين المدوية:

- من يحب الله فليذهب إلى الكوت.

هنا فك الجاووش قيودنا.. وشعر العوام بأنه يجب ان يرد دينه لله الذي

انقذه قبل أيام؟ فقد وقف أخيراً ورفع رأسه كالأسد غير هيّاب للموت.. لم ينتبه أحد لهروبنا ثم عودتنا للمعسكر. ولم تكن هناك سوى الفوضى والقصف المدفعي ورجال يشتبكون بالسلاح الأبيض والأيدي لإنقاذ حامية الكوت.. يا للعجب.. فقد يئس العوام أخيراً وارتمى بين ذراعي الحرب مرة أخرى.. أما انا فكنت لا أعرف ماذا سيكون دوري في هذه الحرب الدامية؟ هي ليست بشراً لكي أزعل معه، أو أمتنع عن مخاطبته كلما شعرت بالظلم. هي ليست أمي التي كانت تهلل لكل نفس أتنفسه، ولا زيتونة التي كانت تحتفل بكل سن يطلع في لثتي. هي ليست توبة شرار النار الذي علمني أن استعمل قدمي، ولا عبد الرحمن الذي علمني أن استعمل يدي، ولا أحمد العوام الذي علمني أن استعمل رأسي.. هي أيضاً ليست آسيا التي ظلت تغار مني، ولكنها بكت بكاء مريراً عندما ودّعتني، و بقيتُ أسمع بكاءها خلف الباب حتى بعد أن ابتعدت عنه مسافة طويلة.

رحت أدب على الأرض كالدودة العمياء لكي أصل إلى العوام. فأنا وحدي الذي سمعت أنّاته الخفية، وقد ملأت تلك الأنات قلبي بالحب لرجل حكيم أصبح لا حول لديه ولا قوة.. العوام جُرح بسبب شظايا قذيفة مدفعية سقطت قريباً منه وهو يدافع عن حامية الكوت. كشف جرح صدره الغائر عن ضلوعه المدماة، وهذا ما حدث للحمامة أيضاً على السفينة. فقررت أن أحمله إلى المستشفى الحربي، أو إلى أي مكان يتوفر فيه الأمان. كانت الإصابة في رأسه أيضاً، ألا انه كان لا زال حياً يتنفس. ولدهشتي فقد فتح عينيه عندما حملته، وقال لي:

- اركض يا أحمداني. هيا اركض من أجل حياتي.

كان القناصة الأتراك يطلقون النار على أي شيء يتحرك ويقترب من النهر.. وعرفت من العوام، وهو لا يزال واعياً، أننا قريبون من المستشفى التي أمر طاونزند بإنشائها بعد هدم البيوت و الاستيلاء على سوق البلدة.. أي أننا قريبون من النهر الذي أريد عبوره.. ولكن كيف أعبر، والقصف المدفعي عاد من جديد، وكل زاوية من حولنا كانت تشتعل بالقذائف التي

تتهدم بسببها البيوت، وتتقطع لها رؤوس الأشجار والنخيل... بعد قليل توقف القصف، وتمكنت رغم الاعياء الشديد والظلام من رؤية النهر.. كان النهر يحيط بالكوت من ثلاث جهات.. فخمنت بأن الجهة التي نحن فيها تؤدي إلى الديوانية، وقلت للعوام سأعبر دجلة باتجاه عفك ثم السماوة. العوام لم يرد، قلت له: تحدث يا عوام لكي تبقى واعياً. لقد هدأ رصاص القناصين، وأستطيع أن أحملك حتى نصل الشط الثاني.. صار صوته يتحشرج في صدره. أصبح العوام يتحدث بصعوبة وبالكاد يستطيع فتح عينيه.. قال لي:

- لا لا يا أحمداني.. اتركني هنا واذهب أنت، سيشرق الفجر بعد قليل. وسيسترني الله بستر من عنده، فاعبر أنت وحدك، وارجع إلى البيت.. لا زال طريق السماوة آمناً، وسأكون أنا عبئاً عليك.

- لن تكون عبئاً عليّ.. سأحملك..... إلى بر الأمان.

- لا تبكي لا لا لا تبكي، أرجوك لا تبكي، ولا ينبغي لشاب مثلك أن يموت من أجلي.. ولا أن يحزن أيضاً. أنا فقط أشتهي شيئاً من العسل مع القيمر.

لمعت الدموع في عينيه، فنزلتْ الدموع من عينيّ كالماء الجاري، وسمعت صوت الجدة زيتونة تقول: ما أطيب هذا العسل الذي جمعتِه يا ريحانة، فهيا اسقِ الأحمداني شيئاً منه لكي لا يموت كباقي أخوته.. اضطربتْ نفسي وتضرعت لله لكي ينقذ العوام من الموت.. هذه ثاني مرة اتضرع والدموع تزخ كالمطر.. مرة عندما جثم عليّ صاحب شجرة السدر ووضعني في أحضانه، وهذه المرة عندما وجدت العوام يحتضر في أحضاني.. تضرعت وبكيت حتى ابتلّ زغب لحيتي.. ولكن الفجر أشرق، ومات العوام بين يدي تحت غطاء الدخان الأسود الذي لف مدينة الكوت.. كنت أريد أن أعبر به النهر، وأن أبتعد عن هذا الحشد الرهيب من البشر. وكانت الجدة زيتونة تطفئ سيكارتها وتنظر لي تنتظرني ماذا سأفعل.

-31-

آن الأوان لكي أكون وحيداً مع نفسي، بعيداً عن كل حساب وكتاب، حراً أفعل ما أشاء للمرة الأولى في حياتي. الجند من حولي تطوحهم أصوات البنادق وأنا اريد العزلة بعيداً عن هذا الحشد الأهوج من البشر. أن أصف وأرى كل شيء دون أن يصفني أو يراني أحد.

لا ينبغي للملهوف أن يرجع خطوة واحدة من أجل شيء خلفه.. وأنا كنت أركض بسرعة إلى أمام لكي أرجع للبيت بعيداً عن هذه الحرب، ولا ينبغي لي أن أتوقف لحظة واحدة.. أو أتردد.. الأشجار كثيفة أمامي.. ولا شيء فيها سوى الطيور والغزلان البرية.. هناك رجل يظهر بين الأحراش، ويقول لي ساعتك لم تحن بعد.. فهيا اركض يا أحمداني.. كان ذلك الرجل الذي أراه هو نعيم المصور حليق الرأس شأنه شأن كل الجنود.. وعرفت بأني كنت قريباً من الخلاص.. فقد أشرق الصبح، وابتعدتُ عن الكوت بمسافة كبيرة. وأثناء الركض راح قلبي يطلب الدم وصدري يطلب الهواء، أما عقلي فلا يتسع لأي شيء.. ولا حتى لأمي أو اختي آسيا.... كان يأخذ الدماء والهواء ويحولها إلى أيدٍ تتحرك وأقدام تنهب الأرض نهباً. فجأة سقط مني ذلك المفتاح.. مفتاح بابي الأول والأخير، فتوقفت أبحث عنه وما كان ينبغي لي أن أتوقف.... رأيت نعيم المصور يشق طريقه بين الأحراش، وسمعت صوته يناديني مرة أخرى.. كان يركض خلفي مثلما ركض خلفي وأنا أحمل كاسة اللبن الخاثر..

شيء غامض ومحيّر أن أرى ذلك الرجل المصور أكثر من مرة.. إنه يخرج هذه المرة من غابة الغزلان التي اعترضتني في طريق لا يوجد فيه غير الأشجار الكثيفة.. ويقول لي:

- انظر لهذه الصورة.

- هل هي صورتي؟

- كلا.. إنها صورة طلقتين انطلقتا من جهتين مختلفتين.. واحدة من جبهة الإنكليز والأخرى من جبهة العثمانيين.. وفي الصورة ستظهر الطلقتان وقد اصطدمتا ببعضهما البعض وتعانقتا على شكل علامة الضرب.

- أيعقل أن تكون هناك مثل هذه الصورة؟ هل يكون الحظ مؤاتياً للمصور إلى هذه الدرجة؟

- عندما تنتهي الحرب سينسى الناس كل شيء، ولن تبقى سوى هذه الصورة. وسيلغط عنها الناس لغطاً كثيراً حين أضعها في الصفحة الأخيرة من كتاب الفكشنري.. أو قد أضعها في الصفحة الأولى. بعد الديباجة مباشرة.

- وماذا عن صورتي مع شرار النار يا نعيم؟ أين ستضعها في كتابك؟

- أي صورة تقصد؟

- صورتي في يوم الختان، وصورتي مع كاسة اللبن الخاثر.

- سنقلّب الكتاب ونبحث عنهما عندما تصل البيت.

- لماذا ليس الآن؟

- لأنك يجب أن تصل البيت، ولأن الصور قد أصبحت فوق بعضها البعض.. ولا مجال لتقليبها الآن، فالطائرة الحربية قد جاءت.. وسترمي حمولتها بعد قليل.. وأنت يجب أن تركض يا أحمداني. يجب أن تركض.

كنت أركض كما علمني توبة شرار النار عند انسفاح الطريق الخالي من ركام الدنيا. الركض لا يحتاج إلى معدات أو أماكن خاصة.. يحتاج فقط إلى أقدام مدربة، ووزر جسم خفيف، وأسرعه عند الهروب من

خطر معين تواجهه، ولكي تنجو منه أركض.. أركض. أركض. أركض. أركض. أمامي طريقان أحدهما دامس الظلام أسمع فيه صراخاً وعويلاً، والآخر في نهايته نور باهر لا يوجد شيء يشبهه على وجه الأرض، وعند وصولي إلى مكان النور، أصبحت أرى عدداً من أقربائي المتوفين، وأحكي مع بعضهم وسط شعور غامر بالخفة والفرح والسعادة.

«ارجعْ كما كنت لأن ساعتك لم تحن بعد».

تذكرت ساعة انفجار مستودع البارود في المعسكر، عندما انتشر الدخان الأسود داخل الظلام، واهتزت الخنادق من اقصاها إلى أدناها. في تلك الساعة الرهيبة سكنت أنفاس العوام، ولم تعد الدموع تنزل من عينيه، أصبح حلماً بعيداً في حضن بعيد.. بينما قلبي يرتجف ويرتعد من الحزن، وليس من الدوي الهائل للانفجار.

-32-

أمي كان لديها حوض من النعناع والريحان بقرب حوض الماء..... وهي التي تزرعه مع خالتي نومية من البذور والأعواد، وعندما تمتد الجذور في التراب وتكبر الأوراق، تقطعها وتلفّها باقاتٍ بشريط نحيف من جريد النخل، ثم تأخذني معها إلى السوق لكي نبيع الباقات هناك.

ينفجر لغم... أتذكر موسم الكمأ.. كنا نستخدم قطعاً من الحديد، أو الحجارة المسننة لاستخراجه.. بحثنا عن حبات الكمأ لمسافات طويلة، ثم واصلنا العمل حتى غربت الشمس، وأخذ التعب منا مأخذاً، فجمعنا المحصول، وغادرنا إلى البيت. في الطريق تذكرنا اننا نسينا الرجل المسن الذي كان معنا، وحال الظلام بيننا وبين العثور عليه حتى الصباح الباكر.

يلعلع رصاص بعيد.. أتذكر بحيرة ساوة يوم رافقتُ توبة شرار النار إلى الكهوف المحيطة بها، واصطدنا سمكاً شحمياً ذاب برمته عندما قليناه فوق نار الحطب.

تنطلق قذيفة مدفع.. أتذكّر المخبز الذي ذهبتْ إليه خالتي نومية في يوم من أيام القحط، فرأتْ عشرات النسوة يمددن أذرعهن نحوه، ثم تُرد تلك الأذرع على أعقابها إلى الفراغ، أو بقرص خبز واحد فقط. كانت النسوة يتشابهن وكأنهن امرأة واحدة، فلم تستغرب أمي ما نقلته لنا نومية، وإنما قالت لها بأن الله يخلق من الشبه أربعين شخصاً..

كنت أركض كما علمني توبة شرار النار، وأشعر للمرة الأولى بأن ما علمني إياه لم يكن أبداً مضيعة للوقت، بل هو اختراع عظيم للابتعاد عن أربعين ألفاً من البشر.. فلا يصفونني ولا يعرفونني.. ولا أسمع هذه الأفكار التي تحوم من حولي.. ويتكرر طرقها في رأسي من حيث أشعر ولا أشعر.. حتى آخر حكايات العوّام كانت تصلني فأسمعها. وكانت عن عشيرة مات شيخها، وليس عنده وريث يخلفه سوى ولد صغير ومريض.. تنازع الكبار حول المشيخة، فذهبوا لحكيم العشيرة وشرحوا له وضعهم، فقال أنا أختبر الراغبين بالمشيخة واحداً واحداً. فإذا نجح بالاختبار يكون هو شيخ العشيرة. دخل أولهم فسأله الحكيم:

- ما هو الأمس وما هو اليوم وما هو الغد؟

لم يعرف الرجل الرد على السؤال. جاء الثاني ولم يعرف الجواب.. جاء الثالث والرابع والخامس والسادس، وكلهم لم يعرف أحد منهم الجواب. سأل الحكيم ألم يخلف شيخكم ولداً أبداً؟، قالوا بلى، ولكنه صغير ومريض، فقال الحكيم إليّ به لكي أراه. جاء الولد وتخطّى الجميع، وجلس بقرب الحكيم، فقال له:

- لدي سؤال فشل الجميع في الجواب عليه؟ هل تسمعه؟

- نعم.

- ما هو الأمس وما هو اليوم وما هو الغد؟

- الأمس أبي واليوم أنا وغداً ابني.. أدار الحكيم بصره في وجوه الجالسين، ثم قال:

- هذا الولد هو شيخكم.

وصلتُ القطار الذي يجب أن أركبه من أجل الراحة قليلاً من الركض، وبداخله توبة شرار النار وقد أصبحتْ كرة المطاط في يده فارغة من الهواء. والدنيا مختلفة عن الدنيا التي كنت أراها، وأنا أصدّق كل ما أراه، ويراه إخواني الذين سبقوني إلى الدنيا.. بعضهم تعلم الكلام، وبعضهم نام، وبعضهم شد الحبل بعقدة.. وبعضهم فك العقدة.. وبعضهم عضته

العقربة، وبعضهم سقط في التنور، أو التف على عنقه حبل المشيمة... أجسامهم انتفخت.. وأنا أصبحت كومة من الجلد والعظم. لا أريد المنام والكلام.. لا أريد السم والزقنبوت.. ولا أريد التعليمات ولا شرب الدواء.. لا البرتقال ولا السفرجل.. لا قرع الطبول أو تقاسيم الناي.. لا الأمس ولا اليوم ولا الغد.

نعيم أمضى عمره كله يلتقط الصور.. وقلبها مراراً وتكراراً، ثم بدأ يمزقها عند رجوع القطار إلى الوراء.. القطار أخذنا إلى مدينة فيها ألعاب كثيرة، ودواليب هواء عملاقة، وعندما أردت صعود عربة من عربات ذلك الدولاب قال لي رجل يرتدي ساعة في يده، إنك ستذهب لاستئصال صورة شمسية من وجهك.. فصعدت إلى عربة دولاب الهواء، ورأيت الأرض تحتي تحولت إلى مربعات خضراء تمر من فوقها غلالات غيم خفيف... بعضها يلتم فيها الحملان والخراف على شكل قطع زئبر بيضاء اللون، وبعضها تقف عليها النساء والأطفال على صورة أجرام صغيرة ملونة... رأيت أيضاً أول صاروخ مضاد ارتفع فوق البحيرة البعيدة، ورأيت اختفاء ملّاح من هذا العالم مع طائرته الحربية ذات القمرة الزجاجية التي ابتلعتها مياه الخليج.. سوف تتوقف المركبة في الجو، تتلاشى، ثم تعود مرة أخرى لتسبح فوق الماء بجناحين وذيل دخان طويل. آخر شيء سمعته قبل أن ينتقل الملاح مع طائرته إلى الغياب هو «إنها تسقط.. أنجدني يا إلهي». وبينما حاولت الطائرة أن تعوم، اختفت تماماً، جنبا إلى جنب مع الملاح..... مددت رأسي من الأعلى إلى هذا العالم الذي أوشك أن أنزل إليه، فسألني أخوتي.. ماذا كان هذا الصوت الذي يبكي عليك؟

- اعتقد أنه صوت امرأة؟

- هل تتذكر الآن ماذا قالت؟

- قالت إنه سيعيش.

- وماذا رأيت؟

رأيت أمي تصعد إلى السطح، ثم تقف جامدة لا تتحرك و لا تنشر

ملابسنا المبللة على الحبل، بحيث نشَفتْ مجعدة في سلة الخوص. رأيت تحية أم ياسين تنقل يرقات القز إلى صينية أخرى مليئة بالديدان الصغيرة جميعها ميتة أو توشك على التلف. سألتْ جارتنا تحية أمي ريحانة بعد أن اتكأتْ على حافة السياج:

- متى سيأتي الأحمداني لتعلم القراءة والكتابة مع ابني ياسين؟

غير أن أمي لم تجبها.. جميع أخوتي ينتظرون وأنا أتحرك، وتحط فوق رأسي جوقة من العصافير.. وكل هذا يختلف معناه عندما لا يحدث، لأن صورتي الشمسية لم تكن موجودة لا في بيت أهلي ولا في سجل مختار الحي، ولا في أي صفحة من كتاب نعيم المصور الذي أسماه بالفكشنري.. الطفل الذي يجلس على كرسي الجريد لا يبدو مرئياً لآلة التصوير. إنه يطل بوجهه على الدنيا.. يرى أمه تبكي، وآسيا يتدلى من أذنها خيط أسود. وزيتونة تمسك بأبرة الخياطة.. وصوت براقش كلبة شرار النار يأتي من النافذة المفتوحة:

- لمن تُلوّح بيدك يا أحمداني؟

- لنعيم المصور.

- لا أرى أحداً هناك.

لم أعد أشعر بأي هواء. كأنني أصبحت داخل عمية(*) من الصوف والشعر. عددت أصابعي أكثر من مرة متخيلاً معاركها تحت سعف نخلة الجيران والعصافير التي كانت تنسج أعشاشها في بيتنا مما يتساقط من شعر أختي آسيا وخالتي نومية وأمي ريحانة.. منذ الصباح الباكر والتراب لا يخف، بل يزداد كثافة ويجعل لون الدنيا حمراء كالدم.. منذ الصباح والنساء يولولن خوفاً على حياتي، وأمي تقول لهن بأن الأحمداني بخير، إلا أنه تأخر في الطريق، لأن الدنيا أعماها الغبار الذي جاب الصحراء طولاً وعرضاً ثم تكّوم فوق سطوح البيوت.. وبعد قليل ستمطر الدنيا فيتحول ذلك التراب إلى حمأ وطمي.. ويهرع قوس قزح إلى السماء ما أن يطأ الأحمداني بقدميه هذا البيت.

-33-

يد تطرق على الباب. فقالت أمي لخالتي نومية:

- افتحي الباب، إنه هو.

- افتحي الباب إنه هو.

أمي أصبح ممشاها ثقيلاً، ونومية لم تعد تضع الكحل تحت عينيها.. فتحتْ الباب بيد واهنة مرتجفة وقالت:

- لا، إنه ليس الأحمداني.

- هل هو السقاء؟

- نعم.

الباب التي فتحتها خالتي نومية تكاد تكون مخلوعة من مكانها، وذلك الدرج الذي نزلت منه أختي آسيا يربطه بالسطح سلّم مثلم لا سد فيه.. ومن ذلك السلم رأيتها تسقط عدة مرات، ورأيت أمي تأخذ منها القبقاب الخشبي الأحمر وهي صغيرة.... أنا الآن استطيع الصعود عليه دون أن أسقط.. فيلوح التنور أمامي تلة سوداء فتْحتُها مغطاة بصينية معدنية عليها قطع متيبسة من العجين.. ولا أخاف من آسيا أو أحنق على السقاء، كما لا أستطيع أن أتبين وجه نومية، أو أرى النملات على حافة الإناء.

الماء كان يفيض وينسكب من حافة الخزان.. وهي تدخل وتخرج في الظلمة من أجل إناء فيه ماء.. هناك قشرة رقيقة خضراء تكونت فوق

سطح الماء كنت أقشطها بيدي فتعلق بين أصابعي على شكل شبكة عفنة تعافها نفسي.. (اصعدْ الدرج) قال لي أبي، لن تمسسك نار التنور، ولن تتذوق الماء الآسن أيضاً.. فقد تساوت الألوان على قوس قزح.. قلت له أَمهلني لحظة يا أبي.. أريد أن أتبين هذا الدرج.. كان مكشوفاً على الفضاء فيما سبق، والآن أصبح له سد وسقف يمنع عنه الشمس.. وعليه أصعد ومعي أشباه أربعون لا يشعرون بالبرد الشديد... في أوله أبي يزرع البستان، وفي آخره قنديل ضعيف يتكاثف البياض بين جنباته ومن حوله.. أخيراً دخلت إلى اللون الأبيض للقوس، فرأيت أخوتي كلهم، وزال عني شعوري بالبرد، وحكيت مع بعضهم وسط إحساس غامر بالخفة والفرح والسعادة.

شعرتُ بالسكينة لأني معهم.

-1-

ولد الأحمداني ميتاً.. فاستقبلَتْه الجدة زيتونة بالضربات على صدره وبطنه.. الأم تكفخ على رأسها وتبكي بكاءً مريراً، وزيتونة تكفخ الولد على ظهره ومؤخرته وتقرص أذنه وبطنه وحتى غرلة عضوه الصغير.. اخيراً غرزت إبرة الخياطة في شحمة أذنه فلم يصرخ أو ينتفض، وإنما فتح عينيه بذبول ثم أغمضهما مرة أخرى على عينين لا تريان شيئاً، سوى حدوة حصان عديدة الألوان تلتف بين عروتين من قطرات المطر. اجتازَ الحدوة سريعاً من جانب لآخر في لحظات قصيرة جداً.. مرت الحياة كلها أمام عينيه بلمح البصر، ولم تبق له إلا لحظة حياة خاطفة يريد النهار فيها أن يطلع ولا يقدر.. لا يكاد الهواء أيضاً أن يصل إليه.. يشعر فقط بأن ذؤابات ظفائر الجدة زيتونة تمس أذنه.. فيسمع أمه تصرخ وتبكي من أجل طفلها الذي يأتي إلى هذه الدنيا ميتاً.

وهو في الرمق الأخير، جالساً فوق أعضائه بين يدي الجدة زيتونة، سمع آسيا تبصق على الجدة زيتونة، لتمنع مجيء طفل آخر للدنيا:

- تفووووو عليك.

-انتهت-

الهوامش

- الجدة: القابلة بلهجة أهل بغداد، والحبوبة بلهجة أهل السماوة
- الأخت: مرض جلدي يسمى بحبة بغداد
- الحمدُ: سورة الفاتحة
- قنداغ: ماء دافئ مداف بالسكر
- هشتية: ممر طويل بلهجة أهل السماوة.
- حاصل فاصل: أكلني وشربني بالكلام
- مصخم: سيء جداً
- جوبة: مكان لبيع الماشية.
- لكجة وجتاية: ربطات للرأس
- فركاس: دملة
- الجاهل: بالعامية العراقية تعني الطفل أيضاً.
- سليمة: مصاب جلل.
- قنقينة: سيء المزاج
- ترجية: قرط
- باغة: بلاستك.
- لعابة: دمية
- انترس: امتلأ

- جول: برية
- جامخانة: واجهة
- جارك وحقة وطول: وحدات وزن وقياس قديمة
- نامكور: ناكر للجميل
- كورمامش: حديث النعمة
- أخذتنا سير وسريدة: وضعتنا في مأزق صعب
- عميتة: شبكة من الصوف.
- بيب: برميل
- بيبي متو: طائر الببغاء
- عكد دبعن: المصدر مقالة للسيد عامر موسى الشيخ، جريدة المدى، 13-1-2017
- الرحلة الحجازية للبتنوني.
- «فِكْشِنري»: هذا العنوان قام المصور نعيم بنحته من مزج كلمتين هما (فكشن) و(دكشنري).. فجاءت هذه المفردة لتعبر عن مزيج أو طيف من المعارف والصور والحكايات التي تضمنتها الرواية.

أعمال ميسلون هادي

الروايات:

- أخوة محمد، رواية، دار الذاكرة للنشر والتوزيع، بغداد. 2016
- جانو أنت حكايتي، رواية، دار الحكمة، لندن، 2017
- جائزة التوأم، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2016
- العرش والجدول، رواية، مؤسسة كاتارا، قطر، 2016 بثلاث طبعات عربية وانكليزية وفرنسية.
- سعيدة هانم ويوم غد من السنة الماضية، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015
- أجمل حكاية في العالم، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2014
- زينب وماري وياسمين، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2012
- حفيد البي بي سي، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2011
- شاي العروس، رواية، دار الشروق،عمان 2010
- حلم وردي فاتح اللون، رواية،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2009

- نبوءة فرعون، رواية،المؤسسة العربية للدرسات والنشر، طبعة اولى بيروت 2007. طبعة ثانية بيروت 2016، ومترجمة عن دار أوثر للنشر لندن 2011
- الحدود البرية، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، طبعة أولى بيروت 2004. طبعة ثانية 2017
- العيون السود، رواية، طبعة أولى دار الشروق، عمّان 2002. طبعة ثانية المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2010
- يواقيت الأرض، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمّان 2001.
- العالم ناقصاً واحد، رواية، طبعة أولى دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد 1996، طبعة ثانية دار أسامة للنشر، عمّان 1999. طبعة ثالثة المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2017

المجاميع القصصية:

- سيارة مكشوفة في يوم مشمس، قصص، دار شهريار، البصرة 2018
- أقصى الحديقة، قصص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 2013
- ماما تور بابا تور، قصص خيال علمي إلكترونية،الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2012، وطبعة ورقية عند دار الشؤون الثقافية في بغداد 2015
- الليالي الهادئة، قصص،الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، القاهرة 2011
- رومانس، مجموعة قصصية، الإتحاد العام للكتاب العرب، دمشق 2000.

- لا تنظر إلى الساعة، مجموعة قصصية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1999.
- رجل خلف الباب، مجموعة قصصية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1994.
- أشياء لم تحدث، مجموعة قصصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة 1992
- الفراشة، مجموعة قصصية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1986.
- الشخص الثالث، مجموعة قصصية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1985.

كتب أخرى:

- شاهدتهم وحدي، روايات وقصص طويلة للفتيان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015. يضم ست روايات للفتيان،
- «التلصص من ثقب الباب» (مقالات)، 2013
- «هذه الدنيا كتاب» (قراءات)، 2014

لا ينفتح بالعادة شباك بيتها، ولا يجد شرار النار خبراً أو أثراً لأصبع واحد يظهر منه، غير أن هذا الشح لم يدفعه أبداً إلى الشكوى من سوء حظه، أو الانقطاع عن مروره اليومي من هناك، فهو لا يملك إلا أن يتداعى عندما يصل بابها، ويقف ساكناً كالتمثال ليرهف السمع لصوتها العذب البعيد، أو يشم بنهم رائحة الهواء الذي تنفسته قبل قليل.. وما هي إلا لحظات حتى تدب الروح في التمثال، ويغدو أسداً حقيقياً يهجم على الأرض، فيفترسها في الحال، ويترك باب البيت، وقد آمن بالقدر، وأدرك أن المكتوب على جبينه هو أن يكتفي من ريحانة بهذه المسافة من القرب. فهو لا يعرف حتى لون عينيها.. ولم يصادف منها سوى صفحة وجهها الذي يتلألأ تحت شيلة سوداء، وقد حالفه الحظ لكي يراه، عندما أطلت من باب البيت لمناداة طفلتها آسيا، الوحيدة التي تبقت من صغارها على قيد الحياة.

ISBN 978-9933-6172-7-1

9 789933 617271

مكتبة نوميديا

لوحة الغلاف: الفنان ستار درويش